قصة عائلة

رواية توثيقية

الكتاب: قصة عائلة (رواية توثيقية)

تأليف: الدكتور قصي الشيخ عسكر

الطبعة: ٢٠١٨م

حقوق الطبع: محفوظة

978-9933-596-10-1:ISBN

إصدار: مؤسسة المثقف العربي، سيدني – أستراليا

Almothaqaf Arabic Association

almothaqaf@almothaqaf.com

سورية - دمشق

جوال ٠٠٩٦٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦ - ٠٠٩٦٣٩٣٢٠٠٢١٢٦ -

E-mail:ammarkordia@yahoo.com

قصي الشيخ عسكر

قصة عائلة

رواية توثيقية

مؤسسة المثقف العربي

دار أمل الجديدة

"تتـداخل في هـذه الروايـة الشخصـيات الحقيقيّـة والخياليّـة ومـن مـاتوا ومـن هـم علـى قيـد الحيـاة إلى درجـة أن الكـثير منهم آثـر أن يتخـذ اسمـا آخـر غـير الذي فتح عينيه عليه"

الجزء الأول

البصرة

استهلال

عام ١٩٩٦ غادر هاني إلى ألمانيا ليمنح ابنه المصاب بسرطان دم عَلِق في جسده من حرب الخليج نخاعا فليس هناك مايطابق دم منير غير دم الأب ثم اكتشف الأب أن وصوله لايعني شيئا سواء كان متأخرا أم لا فقد اختطف الموت الابن وبذلك دشن آل نجم أول قبر لهم في الخارج وسوف آتي على قبور الآخرين فيما بعد وها أنا - أخي هاني - وجدتني أعود إلى البصرة - حالما بدأت أنت رحلتك إلى أوروبا - أعود إلى عام ١٩٥٩ لأقتنص اللحظات.

١

المدرسة

لم يكد الدرس ينصرم حتى تخطى الأستاذ محمد مدرس اللغة العربية صف المقاعد إلى حيث أجلس وقال بصوت هادئ رزين شأنه كلما خاطب تلاميذه:

جمال عبد الناصر يخطب الليلة الساعة التاسعة مساء عليك بصوت العرب وانتبه دائما إلى اختلاف التوقيت، بيننا والقاهرة ساعة من فرق الوقت.

والأستاذ محمد يعرفني جيدا أقرب طلاب الصف الأول الثانوي إليه لحبي درس اللغة العربية وعشقي الأدب والشعر.كان يختارني أول طالب يقرأ موضوع الإنشاء ويرشحني للخطابة في استعراض المدرسة على الرغم من قِصَر الفترة التي أمضيتها في ثانوية المعقل إذ وجد فيّ أنا الطالب الجديد القادم من بغداد القدرة على قراءة الشعر بصوتٍ وإحساسٍ يريده هو حماسة وتمثيلا وانفعالا وكان الشعر عندي منذ طفولتي جزءا من المحبة التي تسري بكياني وتتجلى فيها أحاسيس صبي لم يتجاوز الخامسة

عشرة من عمره متخطيا أقرانه وزملاءه بحب الأدب والشعر والجمال.

وهو يعرف أيضا أن أخي الملازم الأول هاني يساريّ الهوى محسوب من أنصار الزعيم، وأظنه يعرف هوى عائلتنا، ويبدو أن نشوب الخلاف بين إذاعتي صوت العرب وبغداد وهجوم إعلام مصر على شخص الزعيم لم يثنه عن أن ينّبه الطلاب من خلال الحديث معي إلى أوقات تبث فيها إذاعة صوت العرب خطب عبد الناصر. الحقّ لم يكن ليأمرنا بل كان طيب القلب يذكر ذلك بعفوية وهو يعلم أن هوى الطلاب في صفنا مع الزعيم!

بل هو هوى كلّ أبناء المعقل...

كنت قبل وصولي إلى البصرة طالبا في الصف الأول بثانوية الملك فيصل الأول.. وقبلها في مدرسة غازي الابتدائية.. لاأتذكر أحدا من مدرسيّ هناك خلال تلك المدة القصيرة، وإن استفزتني بعض الأحيان صورة باهتة للعبة من معلم الرياضة، ومشهد لمدير المدرسة الابتدائية يضرب بالفلقة طالبا قد لا يكون تمرد على الأوامر في المدرسة بل لمحه المدير بعد الغروب في الزقاق، وربما تخطت بي ذكرى ما- تلاشت مع الأيام - إلى بعض رفاق جمعتني وإياهم مقاعد الدراسة أو استثارني مع أيّة عقبة تواجهني حنين وهوى

إليهم..

ذلك اليوم الذي جاءنا فيه أخي الملازم الأول هاني بخبر جديد غيرّ شؤون العائلة كلّها..حياة جديدة..ومكان آخر غير بغداد.. تحّدث همسا مع أبي الشيخ – شأنه كلما جدّ أمر يخص العائلة ثم قال وهو يوجه خطابه لنا:

مارأيكم بالبصرة؟

قالت أمي مستغربة:

خير إن شاء اللّه.

وقالت أختي الصغرى "بتول"التي جذبها الخبر فتوقفت عن كتاب مدرسي انهمكت في قراءته:

البصرة بعيدة.

اندفعت قائلا، وأظنه يلمح إلى إجازة يستحقها فينوي السفر:

جميلة لكنها حارة في الصيف!

لم يكن الصغيران كامل ومحمد ليعيرا الأمر أي اهتمام، بل كان محمد يتثاءب في حين اتسعت عينا عباس وقال:

أنا قلت مادام هاني انفرد بأبي حالما وصل من المعسكر فلا بدّ أنه سيذيع فينا خبرا ما.

رد كامل ممازحا:

وهل تتنبأ بالأخبار؟

فربت هاني على كتفي بحنو، وضغط بسبابته على حنك "بتول"، وعقّب وهو يوجه الكلام إلى أمي وزوجته:

وماذا تقولان أنتما؟

فقالت أمي: مثلما يقول هشام بلد جميل!

فعاد يوجه الكلام إليّ:

في الصيف عندما تحين العطلة تستطيع الهرب من الحر إلى بغداد، فتسكن في بيت أختك هناء أو بيتنا الحالي في حال إذا بقيتم هنا، فأنا تم نقلي إلى البصرة وستأتي معي!

وقالت أختي وهي تضحك:

إذهب إلى الحر تعال صيّف عندنا!

وقال عباس وهو يغمزني بعينيه:

هناك ستشبع من التمر لكن كن حذرا لاتبلع التمرة مع النواة!

فتدخل كامل زاجرا:

يعني أنت تظل طول عمرك تفكر بالحلويات.

فردّ عليه عباس بهزة من رأسه:

إسأل غيري يمكن الحلويات أحلى من الطوابع مثل هذه الهواية الفارغة يمكن يكون بالبصرة طوابع غير التي في بغداد!

فانبرى نعمان ساخرا:

يا متخلف الطوابع ثقافة.. هواية.. معلمو المدرسة يقولون الطوابع ثقافة، وأنت تظن للبصرة طوابع أخرى "وهز كتفيه" والله تخلّف ما بعده من تخلّف!

ردّ أبي بجدية معهودة عنه وكأنه توقع مثل هذا الأمر منذ أول يوم التحق فيه هاني بالجيش:

كفّوا عن هذا الكلام الفارغ.. البصرة.. البصرة ليكن.. هذه هي حياة الضابط. أنا تنقلت مرات ومرات، وكل عسكريّ، الزعيم نفسه تنقل بين البصرة وكركوك والناصرية والرمادي وفلسطين...

للوهلة الأولى فاجأني الخبر.. قد يتنقل الملازم في مدن أخرى.. وألوية كثيرة.. كما حدث لأبي، وهاني نفسه يوم كان ملازما، وعاش في العمارة ثلاث سنوات إلى أن ترقّى إلى رتبة ملازم أولّ لكننا نحن نظل في محلتنا وبيتنا.. أما أن تنشطر العائلة.. بعضها في بغداد وآخر في البصرة.. شيء جديد وإن لم يكن غريبا.. وكأن انفراد أخي الضابط بأبي خلال دقائق معدودة يدل على اتفاق بينهما، هاني يصحب زوجته وطفله الرضيع ماجد إلى البصرة ولن تقضي الأم وطفلها الوقت خلال غيابه ليالي الخفارات وبقاء الضباط في المعسكر عند الطوارىء.. هشام سيكون معي.. وسيبقى مع

ماجد وأمه في أثناء غيابي.. الفكرة التي اقتنع بها الوالد الشيخ واستحسنها وما علي إلا السفر مع أخي...

هي المرّة الأولى التي ابتعد فيها عن بغداد.

ذلك موقف وضعني فيه هاني فجعلني أسبق الزمن..

أعيش عمرا أكبر من سني الحقيقيّ...

رجل البيت الثاني بعد أخي الأكبر.. قبلي أخي الضابط وريث أبي في مهنته.. وبعدي أربعة إخوة وأخت أمر زهوت به مع نفسي وعشته بكل أحاسيسي وإن لم أجهر بهِ لأحدٍ في يومٍ ما..

سأبدأ في البصرة مع أخي الأكبر هاني...

وسيبدأ معي أخي نعمان الأصغر مني بسنة في بغداد...

ثمّ لتتغيرّ حياة عباس وكامل ومحمد حتى يغادر معظم الإخوة إلى بلدان شتى...

هكذا رحل هاني عنا إلى ألمانيا لنرحل معه إلى البصرة بسنوات!

أما أنا فقد عشت في الجنوب عالما جديدا التقيته بحلم جميل حالما وصلت قبل أن تنقلب الأحلام إلى كوابيس.. النهر الكبير.. شط العرب.. الموج.. الميناء.. بساتين النخل وأشجار الأثل والصفصاف واليوكالبتوس التي أنستني الحرّ، وعطلة الصيف.. كنا في البدء – قبل أن تلتحق بنا

العائلة- نسكن دارا ضمتنا نحن الأربعة اكتراها هاني في البصرة القديمة، فعرفت سوق الجمعة الكبير المزدحم بكل شيء قديم وجديد، أتلهف لزيارته لا بقصد شراء طير أو خضرة وسلعة قديمة بل كوني أجد فيه كتبا قديمة يُباع كل كتاب منها بسعر زهيد يناسب مصروف جيبي اليومي. أحيانا استغني عن تذكرة السينما غرض أن اشتري كتابا بثمنها ولم تنقطع زياراتي إلى سوق الجمعة في البصرة القديمة حتى بعد أن انتقلنا إلى دور الضباط حيث آوتنا دارٌ من ضمن دور واسعة مرفَّهة شيَّدها الإنكليز لأنفسهم فأضفوا عليها كلّ مظاهر السعة والرفاهيّة والزخرفة والزينة وكان يزيدها رونقاً وبهاء إطلالتها على شط العرب حيث النهر الساكن الهادئ بطبعه للنسيم والريح الهابة من الشمال، والهائج المنقلب كالثعبان مع رياح الجنوب، وكثيرا ماكانت أوقاتُ العصر والغروب تشدني فأجلس أتابع الزوارق التي تسري بأشرعتها فوق مياه النهر أرهف السمع إلى نداء سفينة كبيرة اجتازت متجهة إلى الخليج أو قادمة إلى الميناء...

ثم امتلأت الدار الكبيرة بالحركة فحالما سكنّا في إحدى دور الضباط حتى قدمت العائلة من بغداد.. فظننا أننا سوف نظل في البصرة سنوات وسنوات...

لا أدري لم بعث في رحيل هاني إلى المانيا كل تلك الذكريات الحلوة والمرة وأول ماتبادر إلى ذهني وأنا التقط السنوات مدرس العربية الأستاذ محمد وخطاب عبد الناصر الذي هممت بسماعه تلك الليلة، لم أنسك بعد يا أستاذ خالد الشراد.. كنت أيضا قريبا إلى نفسي.. ومازالت طريقتك في شرح دروس الاجتماعيات ترتسم في بالي.. والأغرب إنك لم تكن لتعنى بالسياسة قدر اهتمامك بسعر السوق.. كيلو اللحم والبندورة والتفاح ثم فيما بعد البصل والبطاطا وعلى الرغم من كل ذلك فإنك كنت تسألني عن أخي الضابط.. كيف هو.. كيف حاله.. بلِّغه سلامي.. هل حكيت له عنّي.. ثم يدور الزمن ونكون أنا وأنت على طائرة واحدة إلى القاهرة.. كلانا ينوي أن يدرس الماجستير فتعود خائبا وأنجح في هدفي..

كيف حال أخيك أهو بخير؟

بخير .. بخير.

أظنّ أنك عرفت الحكاية فلم يعد أخي ضابطا..ربما كان الآن يحمل رتبة لواء لو جرت الأمور على خير مايرام لكني منذ تلك الليلة شغلت عنك وعن النوم مبكرا كي أسمع ماذا يقول عبد الناصر.. هاني في المعسكر والساعة على وشك أن تعلن الثامنة.. أحيانا، في مثل هذه الحالات،

تكون عينا أمي تحومان على الأرقام والعقارب الكبيرة وهي تقترب أكثر.. أما نعمان أو عباس وكامل ومحمد فيدلفون إلى غرفتهم كلّ منهم يساعد الآخر في درسه.. والدي اعتاد أن يجلس قبالة المذياع يتابع خطب الزعيم ومحاكمات المهداوي.. كان يعجب بولده الملازم الأول ويفخر أنّه محسوب من جماعة الزعيم.. بالضبط مثل زهوي في المدرسة بأخي. قالت أم ماجد شأنها كلما غفا الصغير:

ماجد نام وهاني في العمل..

فأجاب والدي بابتسامة واسعة كأنه يطمئنها:

لا تقلقي قد يكون هناك أمر ما أخره وإلا نحن هنا في البصرة بأمان واللواء كله مؤيد للزعيم والثورة!

لكنّ زوجة أخي كانت تقلق – على الرغم من كونها اعتادت تلك الحياة – حين تعلم أن زوجها يغيب لأداء واجب بعيد في الشعيبة.. وحفَّز أمي حديث كنتها وأبي فغالبت موجة سعال خفيف وقالت:

لماذا كل هذه الامور ماذا يريد القوميون وعارف وعبد الناصر؟ الناس بخير فلم هذه المشاكل!

قلت أكرر ماسمعته وإن فهمت بعضه من خلال تعقيب الأستاذ محمد ومدرس الدين:

يقولون الزعيم مخدوع بالشيوعيين والشعوبيين ولابد من

الدين والقومية..

واندفعت بتول قائلة:

معلمة البيتية في المدرسة تقول الزعيم فوق الميول والاتجاهات.

وقال أبي بحماس:

الزعيم للكل لا شيوعي ولا قومي ولا سني أو شيعي..أنت خليك بعيد عن كل مايقال!

فضحكت ورددت بنوع من الخفة:

يعني قصدكم مثل الاستاذ شرّاد همّه أسعار السوق كل يوم يحفظ سعر السلع عن ظهر قلب.

فقالت أمي مؤكدة:

ذلك أحسن له من وجع الرأس وصداع السياسة ليترك الناس السياسة للجيش والزعيم والوزراء وإلا لن يكون في البلد خير مادام كل واحد فينا يريد أن يصبح زعيما..

وغيَّر أبي الموضوع موجها الكلام لي:

هل راقبت إخوتك أو درّست أختك بدلا من أن تجلس هكذا من دون عمل!

فقلت بتثاقل: أبي بتول تستطيع أن تساعد كامل ومحمد في دروسهما ونعمان مع عباس!

لا يا أخي أنا لو أرغب في الدراسة لأكملت المدرسة بعد

الإبتدائية!

والله أعرف أنك ترغبين أن تثقفي نفسك في البيت مضبوط..

وقبل أن أكمل اندفعت:

ليس هذا فقط لا تنس أمي متعبة من عمل البيت وأم ماجد مشغولة بالصغير ثم الأهم من رأيك أنّ هاني لم يعترض أبدا!

كنا في البيت ندرك تماما أن هاني لا يتدخل في مصير أختينا سواء الكبرى هناء التي بقيت مع زوجها في بغداد وربما سمعت بتول من هاني أمورا كثيرة فآمنت أن المرأة يمكن أن تصل حدا تقف عنده ثم تثقف نفسها في البيت ولعلها وجدت في تعب أمي وشكواها الخفية مايؤكد رغبتها في ترك المدرسة، فهزت كتفيها ونهضت نحو غرفة الأولاد قائلة:

هاني قال القرار قرارك مع ذلك سأرى إن كانوا يرغبون في شيء.

إذاً يا إبني لم تبق لك حجة اذهب إلى فراشك لتنهض مبكرا لمدرستك!

الأستاذ محمد أخبرنا أن عبد الناصر يخطب الليلة الساعة التاسعة من إذاعة صوت العرب.

فقطب وجهه قليلا ولاح عليه بعض الضيق والتأفف:

ماذا تسمع منه.. هل تسمع خيرا؟ سيقول عن الزعيم قاسم العراق.. الدكتاتور.. نفس الأسطوانة يعيدها دائما!

وما كاد ينهي كلامه حتى دخل هاني في حال غير التي عهدناها عنه كلّما قدم من المعسكر.. شاب مفعم بالحيوية وسيم طويل القامة تزهو النجمات على كتفيه فيتيه بها مع أحلامه الجديدة.. في المستقبل يمكن أن يترقى ويظل كل أربع سنين يقفز رتبة حتى يصل إلى رتبة الزعيم.. كان يردد أنه يرغب في أن يظل برتبة زعيم ولايتطلع في أن يترقى إلى لواء.. هكذا يبدو كل يوم في ذهابه وإيابه.. لم يبن التعب عليه قط..المرح يتلألأ بوجهه والابتسامة تعلو شفتيه تلك الابتسامة التي ازدادت بريقا - كما خيّل إليّ- بعد ثورة ١٤ تموز، كما لو يريد أن يقول إنه يفتخر بمؤسسة ينتمي إليها غيرت وجه البلد سوى أني رأيته متعبا تلك الليلة..أول مرة أراه مهموما حزينا تكاد كتفاه تحملان جبالا..ولا أبالغ أذا قلت إن بصري وقع على زعيم كبير السنّ أشيب الشعر محدودب الظهر انهزم في حرب، فتثاقل بمشيته كونه عاجزا عن الهرب..

قالت "أم ماجد" وهي تطل من غرفتها حالما سمعت صوته: الصغير نام .. تأخرت!

وقال أبي:

هذا هو المعسكر ومشاكله!

ثمّ في أثناء قيامه:

الله يكون في عونكم.

لم أكن في المعسكر بل كنت خارج السرية في شغل ما!

هل نام الجماعة؟

فأجبت ممازحا:

إنهم في سابع نومة الآن "وعقبت" الأفندي نعمان ينام مبكرا وينهض متأخرا.. يحلم يأن يصبح ضابطا مثلك!

وقبل أن تطل أمي من الغرفة المقابلة لباب المطبخ وتشترك في الحديث التفت إليّ قائلا:

لِمَ لَمْ تذهب إلى الفراش مثل بقية إخوتك عندك مدرسة غدا!

فسبقني الشيخ قائلا:

إنه يرغب في أن يسمع خطاب عبد الناصر يقول الساعة التاسعة.

ماذا؟ "كأنه يستنكر" وهل هناك أحد سوف يسبب المشاكل للعراق غير عبد الناصر!

أعرف أني أقوم بعمل غير مقتنع به.. لايهمني ماذا تعني

الشعوبية.. وسرّ الاختلاف الذي انبثق فجأة بين مصر والعراق.. ربما أدْرِك بمثل هذه السن بعض ما تعني الشعوبية والقومية والشيوعية التي يظنها طلاب مدرستنا وعموم الناس لا تختلف عن الشيعة إلا باضافة حرف الواو.كلُّ ما أعرفه أني أجاري المدرس الذي يمنحني درجة عالية في الإنشاء ويجعلني اقرؤ الشعر أمام زملائي. قلت:

الأستاذ محمد قال لي عبد الناصر يخطب من صوت العرب الليلة الساعة التاسعة!

هيا. عندك مدرسة..إلى الفراش.

فتمتمت بصوت مسموع:

أمر عسكري!

قال عبارته وتوجه إلى غرفة أبي وأمي التي أعرف سلفا أن هاني يحب أن ينفرد مع الشيخ لأمر ما وهي عادة التزمها قبل أن يدخل الكلية العسكرية.. فنظن جميعنا أن شيئا ما يدور بذهنه. قد يبقى الأمر بينهما سرا وربما نعلمه منه بعد أن يطلع أبي عليه، فلحقت والدتي بأم "ماجد" وما كادا يغلقان باب الغرفة خلفهما حتى سمعنا صوت طرقات متلاحقة على باب البيت، وإذا به الجندي المراسل في معسكر محمد القاسم:

سيدي لا بدّ أن تأتي لنستقل العربة إلى الشعيبة!

وهرع من غير أن يلتفت إلى أحد ، وانصرفت إلى فراشي غير عابئ بعبد الناصر وخطابه، وجدت إخوتي راقدين وكل منهم يضع كتابه قريبا من رأسه ،كانت ملامحهم تنبيء بهاجس لمستقبل غامض.. خروج هاني المفاجئ ينطبع من بعيدٍ على أوجه الأولاد وإن كان أصحابها منهمكين في نوم عميق.. أمي اعتادت الحياة القاسية منذ أن تطوع أبي في الجيش، وها نحن نستقبل حياة أخرى.. أب يتقاعد وأخ عسكري يعيل البيت..تتبعت وجوه إخوتي الوادعة.. محمد ماهو مسقبلك.. وأنت ياكامل هل تموت قبلنا؟.عباس كيف لي أن أعرف أنك تكبر وترحل... أنت يا نعمان يا ذا النومة المميزة.. ترقد على ظهرك وتغطي عينيك بذراعك اليمنى وإن كان هناك ظلام يشمل الغرفة.. ألبوم الطوابع قريب من رأسك.. بينك والعالم مستطيلات صغيرة.. لكنك تحلم بطوابع تأتيك من الخليج.. الكويت البحرين.. كامل ومحمد يسخران.. يعلمان جيدا أن ليست للبصرة طوابع خاصة بها.. لأنك أصغر مني بعام.. فأنا أكثر مزاحا معك من دون بقية إخوتي، وها أنا أجدك غارقا في نومك.. فتنبثق من أعماقي لحظة مفعمة بالتهكم.. تريد أن تصبح مثل أخيك.. ضابطا.. عسكريا مزهوا بنجومه.. يا للعجب ضابط يجمع طوابع.. ولا تدري أنه يستيقظ الساعة الخامسة قبل طلوع الشمس وأنت

يلذ لك النوم إلى وقت متأخر ولولا أن توقظك أنت والآخرين واحدة من النسوة الثلاث لكنت تضرب دوام المدرسة عرض الحائط لكني هذه المرة سأنام مثلكم..أمر عسكري من هاني!!

كنت أتمتم مع نفسي وآويت إلى فراشي...

٢

العقيد جلال

أحسست في اليوم التالي بشيء غريب يحوم في مدرستنا..

أشبه بالكابوس الثقيل. .فمن قبلُ، بعد الثورة، رأينا الشارع يموج بالناس، كنا نحن التلاميذ ننعم بالعطلة الكبيرة فخرجنا مع أهلنا نسمع ونرى.. نهتف ونزعق حتى إذا انصرمت عطلة الصيف أصبحنا نعيش داخل الصف وخارجه.. في المدرسة، وبعيد عنها فبدت على وجهي اللهفة أنا التلميذ الناجح من الصف السادس إلى مرحلة الثانوية.عشت تلك الساعات في البيت والشارع وسأكون مع طلاب آخرين ووجوه جديدة في مدرسة أخرى!

مع ذلك أحسست أن اليوم يكاد يفوح برائحة أخرى وطعم آخر...

أين زعيق الطلاب، وضجّة طالبات مدرسة البنات القريبة منا.. ومتى انحسر صخب الشوارع والسيارات وحركة المرور.. البصرة التي لاتهدأ في الجُمَع وتستغل العطل في المظاهرات سكنت وارتاحت استرخت تماما، والذي زادني

حيرة أن نظرات الأستاذ محمد إليّ كانت باهتة وإن بدت تخلو من الحقد.. لا أنفي عنه نظرة الشك قط.. ربما - ولست متأكدا- تناهى إليّ قبل دخولي الصف همس من الطلاب وإشارة نحوي إلى أنَّ جنودا شجعان قتلوا عقيدا عميلا في الجيش ثم من خلال الصمت والهدوء غير المألوفين إلا حين ندخل الصفوف راح بعض الطلاب من غير صفنا يطِلّون برؤوسهم من الباب ليُلقوا نظرات غريبة عليّ يتطلعون ثمّ ينصرفون.. التفت إلى ملابسي وشكلي.. مسحت بيدي على شعري لعلّ هناك شيئا ما وتساءلت بعد لحظات عما يجري حولي.

قال مراقب الصف ياسر عيسى الذي يحب الزعيم حبا مفرطا:

معقول أخوك ضابط وآمر السرية التي قتلت العميل ولم تعلم؟!

ماذا أعلم؟ أيّ شيء؟ هل هوجاد؟

أما محمد جعفر الذي مافتيء يرسم كل يوم بالقلم الرصاص صورا للزعيم ويهديها التلاميذ فقد اقترب مني:

هشام لايكذب أخوه عسكري والعسكري لاينقل أسرار الجيش الى بيته!

قتل.. عملاء.. الجيش إنهما لايمزحان والوجوه تطل من

باب الصف بين فترة وأخرى، فأحسّ أن أصحابها يقصدونني بابتسمات ذات معنى:

عن أي شيء تتحدثان؟

الحادث وقع في معسكر الشعيبة سرية أخيك نفذت إلقاء القبض عليه.. ابن خالتي في سرية ترابط هناك أخبرنا بالحادث البارحة!

لا ألوم أحدا إذا ما شكّ في كلامي..الآن أدركت سبب تأخر هاني في المعسكر وعرفت سرّ انفراده بأبي حال مجيئه إلى الدار.. جميع طلاب صفنا يكرهون عبد الناصر، والأقرب إليّ يشكون أني لا أعلم.. أو آخر من يعلم..أخي في قلب الحدث.. طلاب المدراس.. عابرو الطريق.. المقاهي.. النوادي كلٌّ يلهج باسمه وخلال الأسبوع الذي تلا الحادث كشف الطلاب عما يجول في أذهانهم ولجأووا إلى العنف.. لكنَّ مدرسي مدرستِنا لم يكونوا كلّهم متفقين لتبدأ المشاكل بينهم ويقذف بهم الصراع من الإدارة وغرفة المدرسين إلى رواق المدرسة على مرآى ومسمع من الطلاب.. كأن الحادث بداية انعكست على كل المؤسسات في البصرة والشارع أيضا، وليست مدرستنا فحسب...

حادث قتل لم تشهد له المدينة مثيلا من قبل...

في صفنا نحن أصغر طلاب الثانوية سنا القادمين من

الإبتدائية كان ياسر عيسى وهو أطولنا قامة ذا حماس مفرط في حب الزعيم..ولعن عبد الناصر..وكان عبد الجبار مدرس الرياضيات القومي الاتجاه الذي يخفي انزعاجه من ياسر يخاطبه دائما بعبارته الشهيرة: طول النخلة وعقل السخلة، ولم يكن بمقدور الاستاذ أن يعاقب تلميذه عقابا مباشرا وهو يسمعه يمدح ويلعن ويراه يستغل طوله فيلصق على حيطان الصف صورا للزعيم ويتوسع عمله ليشمل جدران المدرسة ثم يلتفت إليّ ويقول أنت أخوك ضابط.. ملازم أول هات صورة له يرسمها محمد جعفر على ورقة كبيرة ففي يوم من الأيام يصبح زعيما.. غير أن هذا اليوم بالذات اتخذ طابعا آخر.. الأستاذ عبد الجبار عثر على صورة للزعيم ألصقها ياسر عيسى في منتصف كتاب الرياضيات بالضبط فوق نظرية فيثاغورس، فتشوه المثلث والمربعان.. بالصمغ.. وفق مشهد الصورة والكتاب وجد الأستاذ الفرصة مناسبة للثأر، فتقدَّم هائجا نحو ياسر وانهال عليه صفعا ولكي يغطي على عمله أخذ يزعق مؤنبا:

إذا كنت تحب الزعيم فليكن حبك له في قلبك كلنا نحبه لكن أيها الوغد أيها الطويل من دون عقل ماذا لو تمزقت الصورة فتلوث الكتاب سيكون مصيرهما بالتأكيد الأزبال إذا كنت تحب الزعيم فكيف ترمي

صورته في سلة المهملات.

محمد جعفر رسام صور الزعيم كان نصيبه أيضا اللوم والتقريع..أما أنا فكان عقلي لمّا يستوعب الحادث بعد..قد أخطيء في مسألة ما أو يجد معي صورة دسستها في الكتاب من غير أن يراودني خوف..المدرسون كلهم يعرفون رتبة أخي..كنت لا أخاف الأستاذ محمد بل أحترمه وأهابه فماذا لو سألني عن خطاب البارحة وإذاعة صوت العرب:

هل سمعت البارحة خطاب عبد الناصر؟

خلته يوجه إليّ السؤال حالما يدخل الصف..

أو هكذا يبدو..

نظراته إلي باردة ساكنة ليست بذات معنى..كلّ يوم أحسّ فيها بعضا من الإعجاب والتقدير فتوحي إليّ بالفخر، فأقرؤ شعرا.. ألقي خطبة.. وأحوز علامة كاملة في درس الإملاء.. أحد الأيام أخبرته أني حفظت عن ظهر قلب البيان الأول للثورة الذي ألقاه من الإذاعة عبد السلام عارف صبيحة ١٤ تموز، بسم اللّه الرحمن الرحيم.. أيها الشعب الكريم.. بعد الإتكال على اللّه وبمؤازرة المخلصين من أبناء الشعب.. ألقيته كاملا.. قلدت صوت الزعيم، واتخذت هيأته، ومددت يدي في الهواء كأني ألمس الميكرفون أمامي، وهاهي المدرسة تغلي بعد عام من الثورة وشهور من

إلقائي البيان في الصف لنجد نحن طلاب الثانوية أن صورةً ملطخةً بالدمِ ليومِ أمس انعكست في مدرستنا فجأة على الرغم منّا من دون أن ندري.

دخل الأستاذ محمد وخرج من دون أحسّ طعما لنظراته...

صورة قاتمة باردة لا عهد لنا بها.. كأنه ذاهل.. شارد.. سارح.. معنا في الصف وليس معنا.. غائب.. يشغله أمر ما...

مع ذلك ارتحت إذ أعرض عن سؤالي حول سماع الخطاب...

وقبل أن ندخل درس الاجتماعيات خلال تلك الساعات القليلة السالفة التي احتوت همسا عن عقيد عميل قتله جنود في معسكر الشعيبة.. كانت دائرة الأحاديث تتسع مثل دوائر انبثقت حول حجر سقط في بركة ماء.. العقيد جلال نسق مع ضباط في بغداد للقيام بانقلاب يطيح بالحكومة الجديدة.. الطلاب الأكبر سنا قالوا.. سيطوِّق المتمردون الإذاعة والدفاع ويزحف جلال لنجدتهم من البصرة.. وسوف تأتي نجدة من الشمال.. غير أن الجنود الوطنيين ألقوا القبض على العقيد المتآمر وعلقوه على عمود الكهرباء..

الأستاذ محمد لايسألني عن السياسة وعبد الناصر فهل يصبح مثل أستاذنا الشرّاد.. ما من أحد من المدرسين لا يجد فسحة، أية فسحة في الدرس، ليحكي عن الثورة والجزائر

وفلسطين.. جميلة بوحيرد أحمد بن بلا.. حضرموت.. فلسطين.. وقاسم وناصر والاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ويذهبون بعيدا إلى كوبا.. إلا أنت يا أستاذ خالد الشراد لاتعنى بشيء سوى أسعار السوق.. البطاطا هبط سعرها.. ارتفع ثمن البندورة.. بكم تبيع الحاجة "حمدية" البيض الطازج.. محمد جعفر وياسر عيسى ظلا يحلمان بأن يحاصرا ثلاثة مدرسين مثلما حاصر الجنود يوم أمس عقيدا عميلا وعلقوه: مدرس اللغة العربية يعفيانه من أي عقاب وإن كان قوميّ الهوى.. فهو طيب القلب لايعاقب طالبا بالضرب.. الموت فقط سيكون من نصيب جبار مدرس الرياضيات وأيوب الطائفي مدرس الدين...

يقول ياسر: عمود الكهرباء القريب من باب المدرسة سيشهد جثة تتأرجح فوقه..

يرد عليه محمد جعفر:

والجثة الثانية؟

من تقصد؟

الحمار هل من غيره!

ها.. أستاذ أيوب! الله أكبر الصلاة يا عباد الله الصلاة!

ولم يكن كرههما للأستاذ عبد الجبار الذي انهال على ياسر عيسى ضربا موجعا وأنّبَ محمد جعفر رسام صور

الزعيم أو أستاذ أيوب مدرس الدين لكونهما من عائلتين سنيتين.. كان الأستاذ أيوب يلمز الثورة فنحس أنه ينتقد الزعيم بطريق ملتوٍ، في كلّ درسٍ يسب الاتحاد السوفيتي، ويهاجم الكفر والكفار.. يتحدث عن الكافرين والنار يوم القيامة وربما يتجرأ أن يلعن الشوعيين الكفرة.. هناك في روسيا يدّعي أن الأخت تضاجع أخاها.. والمجندات ينمن في المعسكرات مع الجنود.. لا غيرة ولا حميّة، وفي نهاية اليوم بعد أن يفرغ ما في جعبته يتوجه إلى حديقة المدرسة- قبل أن يغادر إلى بيته- الساعة الثانية عشرة والنصف خلال انصرافنا كي لا تفوته الصلاة، فيتوضأ من حنفية الحديقة المطلة على الباب الرئيس الواسع ويقف متكتفا..فيثير استغرابنا.. كان مدرس اللغة الإنكليزية الشيوعي الهوى الأستاذ حميد من عائلة سنية والأستاذ عبد الرزاق مدرس الكيمياء أيضا..فبدا الإثنان أكثر ألفة وقربا إلينا..لذلك حينما وقع الصدام أمام أنظارنا كاد ياسر ومحمد جعفر يشتركان فيه.. إن كلّ ماجرى حددته ساعاتٌ متلاحقةٌ بل دقائق.. أشعل شرارتها ما حصل للعقيد.. قيل إن حميدا انزعج من كلمة قالها أيوب إذ ادعى أن قتلة العقيد جلال في جهنم وأنهم أولاد كلب فرد عليه حميد إنه هو ابن كلب.. وستين كلب!

حدث ذلك في الإدارة هكذا اندلع الشجار في لحظات.. كما تنطلق مظاهرة ما من دون سبب في شارع ما.. كان صفنا أقرب من أي صف آخر إلى مكتب المدير والباب الرئيس.. في البدء استفزنا زعيق من الداخل، تلاه هرج وصراخ انتقل في الممر بين الباب الرئيس وباب الصفّ.. أطل الأستاذ خالد الشراد إلى الخارج يستطلع مايجري.. ثم ترك الصف..اثار فعله استغرابنا فاندفعنا من مقاعدنا مثل قطط محبوسة عن غير وعي منا باتجاه الممر.. ليس صفنا وحده سرت فيه العدوى بل خرج طلاب الصفوف الأخرى وقبلهم المدرسون ليبصر الجميع الأستاذ عبد الرزاق ذا القامة الطويلة والعضلات المفتولة ممسكا بالأستاذ ايوب من رقبته وقد رفع الأستاذ حميد نعلا وراح يهوي به على رأسه وهو يزعق واللعاب يتناثر من فمه: أيها الكلب ستموت كما قتل الجنود الأبطال المجرم جلال إلى جهنم ستموت ضربا بالنعل...

إنهنّ سبع ضربات والعهدة على ياسر عيسى الذي كان يعدّ، بالنعل نفسه الذي ينتعله حالما يخلع الحذاء ويخرج من غرفة المدرسين قاصدا حنفية الحديقة للوضوء.. فيما بعد غلبت كنية "أبو سَبْعِ نِعْل" بين التلاميذ على اسم الأستاذ أيوب، في البدء لم يتدخل مدير المدرسة الذي كان من

طرف خفي يؤيد الوضع الجديد فيفض النزاع ربما انتظر بعض دقائق ليتشفى من أيوب قبل أن يتصل بالشرطة.في حين وقف الشراد مصالبا يديه يتابع بعينين حائرتين مشهدا يجري في المدرسة للمرة الأولى، والأغرب من ذلك أن الطلاب زجّوا بي في المعمعة التي تجري عن غير رغبة مني.. أحد طلبة الصف الخامس أشار إليّ وخاطب مجموعة من الطلاب:

هذا أخوه ضابط السرية التي قتلت الخائن جلال...

وماكاد ينهي كلامه حتى اندفع نحوي هو ومجموعة من الصفوف المتقدمة فحملوني على الأكتاف.. وهم يهتفون عاش الزعيم.. عاش هاني نجم.. يسقط جلال.. يسقط الخونة.. طلاب يحملونني ويهتفون.. عاش البطل هاني.. عاش هشام.. عاشت جميلة بوحيرد.. يعيش فيدل كاسترو.. هدوئي وصمتي ذابا مع خجل يرافقني مع ذلك شعرت منذ ارتقيت الأعناق أني رجل كبير.. رجل شارك في الثورة.. تجاوزت السنين بلمح البصر ومرت الدقائق والأعوام أمامي.. لست صبيا في الخامسة عشرة من عمره .. لا أجد أحدا بعمري حُمِلَ على الأكتاف فهُتِف باسمه.سرية أخي قتلت عقيدا خائنا ،الأكتاف التي حملتني أضفت عليّ - لحظتها- هيبة ووقارا وتجاوزت بي سنّ الصبا إلى زعامةٍ غفِلتُ أو نسيتُ أن أنسبها إلى نفسي من قبلُ فجاءتني من غير أن أعلم

مثلما ورد إليّ خبر مصرع العقيد فيما بعد ،وكما يكون لكلّ شيء نهاية كانت المفاجأة هي التي سحرت الجميع.. العنف لم يبدأه طلاب الصف الخامس الأكبر سنّا لكن جعفر وعيسى فاجآ الجميع باندفاعِهما.. اغتنما فرصة الفوضى وانشغال المدرسين بالشجار فمرقا هائجين نحو الأستاذ عبد الجبار الذي كان مترددا في أن يتدخل بين أيوب وخصميه.. فرصةٌ حقا للانتقام.. جرأة غير متوقعة من ياسر وهو يزعق.. ثورة تعيشها مدرستنا.. في هذه اللحظة تخلّى المدير عن سلبيته ونسي تشفيه بأيوب.. وأدرك تماما أنه لو ترك ياسر يعتدي على المدرس لاتسعت رقعة العنف وانتهت الفوضى إلى جريمة قتل فوجّه ضربة إلى كتف محمد جعفر بعصا اعتاد أن يحملها مادام خارج الإدارة وحال بين ياسر عيسى والأستاذ بجسده العريض.. وزعق بالفرّاش أن يتصل بمركز الشرطة ثم التفت إلينا وهو يلهث:

هيا إلى داخل الصفوف وإلا سأطلب من دائرة التربية أن تغلق المدرسة بكاملها! هيا!

وبتلويح منه بالعصا في الهواء الى اليمين والشمال هرعنا كالأغنام إلى الصفوف.. اندفعنا كالقطط المحبوسة نتشفى وعدنا خانعين.. ووقف المدير وهو مثبِّتٌ نظراته الثاقبة إلى نهاية الممر يلاحق الجميع بعينيه حتى تلاشينا في الصفوف

ولم نعد نراه، فشمل المدرسة هدوء تام وخيم سكون مطبق حين تراجع المدرسون ولم نبق في المدرسة طويلا بعد الحادث الذي انفجر في آخر درس. كنا في لهفة لنحكي لأهلنا عن كل ماحدث بأدق التفاصيل..

وعلى الرغم من فرحة غامرة اعترتني إلا أني وجدت جوا غريبا في بيتنا.شيء ما يخيم على الوجوه.. شك.. قلق.. زوجة أخي مرهقة من لا شيء كما لو أنها شاردة ساهمة.. لا أراه حزنا بل شيء قريب من الأسف.. كان إخوتي الأربعة يصلون قبلي إذ كانت المدرسة الابتدائيّة قريبة من بيتنا..نعمان الأكبر استقبلني قبل الجميع متسائلا:

هشام هل وصلكم خبر قتل عقيد في الجيش؟

كان أبي قد فرغ من صلاة الظهر فباشر بالنهوض:

ابني أترك هذا الكلام والتفت إلى دروسك.

لم يزل الأولاد بين الغرف والمطبخ، ومع ماجد في غرفة هاني:

هل تعرفون أن الاستاذ حميد أشبع الأستاذ أيوب ضربا اليوم بالنعل!

ماذا؟ هشام ما ذا تقول؟ أمتأكد أنت من كلامك؟!

أكاد أتراقص تشفيا وفرحا:

طبعا بعينيّ هاتين رأيت.. فاتني أن أعد.. سبع نعال ياسر

عيسى عدّها المدرسة كلها انقلبت!

لاحول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

وقالت أمي مستنكرة:

مدرسون يتشاجرون أمام الطلاب واللّه هذا آخر زمان؟

فنظرت إليّ بتول باستغراب وتساءلت:

يمكن أنت توهمت أو أصابك حَوَل قد يكون المدرس ضرب طالبا!!

قلت دون أن ألتفت إلى سخريتها:

يقال أستاذ أيوب تكلم عن قتلة العقيد جلال بسوء قال كلاب إنه في الجنة وهم في جهنم فاغتاظ الأستاذ حميد وأشبعه ضربا ثم دفع به من غرفة المدرسين إلى الممر

واللّه حرام يفعل ذلك مع مدرس مثله!

يا أبي تريد الحق أيوب أبو سبع نعل يستاهل.

وأطل محمد من غرفة هاني وهو يحمل ماجد ويقول:

غدا قال الأستاذ غازي نخرج مظاهرة نؤيد الزعيم والحزب الشيوعي!

قالت أمي هذه المرة زاجرة ما سمعته مني:

احفظ لسانك ياولد!

وقال أبي والدهشة تلوح على وجهه:

أيّ منطق هذا يدفع التلاميذ إلى أن يعتدوا على

مدرسيهم.. المعلم معلم والتلميذ تلميذ من علمني حرفا صرت له عبدا..

أمي ردت كأنها مشمئزة مما تسمع:

الحق على المدرسين كيف يتشاجرون أمام التلاميذ!

نعمان بتثاقل:

والله هناك معلمون ملائكة وآخرون يستحقون الضرب بأيّ شيء.

تأدب ياولد مهما يكن المعلم فهو مثل أبيك!

قالت أمي ذلك، وواصلتُ غير عابيء بالتعليقات حولي:

هذا عن المدرسين أما الطلاب فرأيتهم فجأة يتجهون نحوي ويحملونني على الأكتاف ثم يهتفون الموت للخائن جلال عاش الزعيم عاش هاني نجم عاش هشام!

وهنا استفزت كلمتي زوجة أخي فالتفتت إلي قائلة:

الله لايوفقهم يريدون أن يلقوا التهمة على أخيك ويجعلون إدارة المدرسة تعتقد أنك المحرض فيضطرون لطردك ما هذا الجنون!

وقال أبي محذرا:

كيف قبلت أن يرفعوك؟

والله يا أبي لم يكن بمقدوري أن أتفاداهم.. أو أمتنع... هاني نفسه لم يخبرني عن الحادث في حين أنّ الخبر يعرفه

كل الطلاب.

قالت أمي ولماذا يخبرك؟ هل جننت؟ هاني يخبرك عن حوادث تجري في المعسكر؟

نعمان الذي مازال ينظر إليّ بين مصدق ومكذب:

إلى هذه الدرجة أنت على الأكتاف، والله لاخير في مدرسة معلموها يُضربون بالنعال!

والله بشرفي إسأل طلاب المدرسة!

أما أبي فقد عقب محذرا بنبرة لا تخلو من اللوم:

اسمع لا تجلب لنا مشاكل لا تتدخل بأي حديث ولا تندفع مع الطلاب هناك أمور تجري لا يعلمها إلا الله وما عليك إلا الالتفات لدروسك.

٣

المعتقل

حقا كانا يومين غير عاديين من أسبوع ساخن ألقى بظلاله الثقيلة علينا.. بالأمس قتل عقيد في معسكر محمد القاسم واليوم الذي تلاه انتفضت مدرستنا.. كان هاني يأتي إلى البيت بعد الدوام بوجه متجهم حزين فيحاول أن يتحكّم بغضبه، وحزنه، فينطبع تجهمه على وجوهنا جميعا.. وأكثر مالاح الحزن على وجه بتول ومحمد آخر العنقود.. قيل فيما بعد إن السيارة العسكرية التي جاءت إلى منزلنا من معسكر محمد القاسم توجهت بأخي إلى الشعيبة حيث ترابط سريته هناك في واجب لبضعة أيام وحين وصل وقع بصره على شيء مهول..

كارثة ..

أمر غير معقول...فظيع..

جثة العقيد على الأرض وجنود حولها.. ثيران هائجة.. ذباب مدوٍ يحوم حول جيفة.. آخر المطاف أنه أمر هؤلاء القتلة بالتفرق.. وقام بإخبار الجهات المسؤولة.. لم يتأخر بل حثّ

السائق على أن ينطلق بأقصى سرعة فيصل إلى الشعيبة لعله يستطيع كبح جماح المتمردين.. ويجدكلّ شيء على مايرام لكنّه وجد القدر قد قال كلمته ليبدأ بعدها دوري في حمل العبء الثقيل الذي كنت أظنه شيئا هينا.. مأساة.. سخرية.. من حقي أن أطلق عما جرى أي عنوان.. عقيد في الجيش يُقتل وإذا بي أنا الطالب في الصف الأول الثانوي أجد نفسي وسط الحدث الذي كنت بعيدا عنه بل سمعت به فيما بعد...

هكذا كنت أفكر...

ربما صغر سني جعلني أهوّن الأمور فأرى المهام الكبرى والأحداث الجليلة صغيرة سهلة تحتاج مني إلى بعض العناء...

المهم هاني غاب عن البيت بعد الحادث.. لم يتوقع أحد منا أن يكون هو المتهم في القضية.. حادث القتل جرى وهو خارج السرية، هذه أمور كنت أعرفها عن أخي فهو لايقتل غدرا ولايغتال غيله يواجه أعداءه،ولا ينزل عن رأيه مهما كانت النتائج.. ربما خطؤه الوحيد الذي اكتشفناه أنه انجرف في حب الزعيم والثورة إلى حد بعيد بدت فيه له الأمور بشكل أرجوانيّ براق.. الزعيم خلصنا من الاستعمار فعلينا أن نحبه ولا غبار علينا إذا تعاطفنا مع اليساريين والشيوعيين الذين أيدوه.. كان يقول لي إننا نحب الزعيم لأنه وزع بيوتا على الفقراء وعبَّد الشوارع وأشاد المدارس

فأنجز في وقت قصير ما عجزت عنه دولة حكمت العراق قبله أربعين عاما.. وهاهو يسهر الليل لكي لا يرى منظر الصرائف القبيح.. بات هاني يؤمن أن الفقر سيتلاشى وكان ينظر إلى السماء حين يسمع أي هدير فيخاطب من جلسوا حوله أنا عسكري أفهم جيدا في قضايا الجيش ..كنا قبل الثورة نشتري سلاحا من عدوّتنا بريطانيا أما الآن فانظروا هذه طائرات روسية تلعب مثل الطيور في سمائنا.. "ميغ" الله! من يصدق.. تلك أمور قدر لي وأنا في هذا العمر استيعابها أما مايجول في أذهان الآخرين من تلفيق التهم وحرف الحقائق في دهاليز لم أرها أو أعرفها فذلك أمر غاب عن ذهني.. لذلك لم أتصور قط أن يساق هاني إلى المحكمة بتهمة قتل كان غائبا عنها حين وقوعها..

أين الشعيبة من بيتنا في المعقل..كيف تلاشت المسافة البعيدة في لحظات..فأصبح هاني قاتلا وهو في البيت؟

بعد أيام قليلة من الحادث سُفِّرَ هاني إلى الديوانية واحتجز في مقر الفرقة الأولى التي كان يقودها اللواء "حميد الحصونة"[1] الذي عرف بانتمائه القومي وعلاقته

---

١ - حميد الحصونه أوسيد حميد من عائلة بصرية معروفة قائد الفرقة الأولى زمن عبد الكريم قاسم،أصدر إليه الزعيم أمرا بدخول الكويت فترك الجيش وذهب هاربا إلى الكويت التي=

بضباط آخرين يبيتون أمرا ما..عندئذ انتشرت إشاعات وحامت شبهات وكثرت أقاويل قيل لنا: إن الحصونة استدعى أخي إلى مكتبه وساومه إذ ساوره شك أنّ هاني يعرف أسماء من قتلوا العقيد جلال من جنود وضباط لقاء تبرئته ..فقد غادر السرية المرابطة في الشعيبة إلى البيت قبل المغرب بعد أن حرض الجنود والضباط ثم حين قُتِلَ العقيد تلقى معسكر محمد القاسم إشارة، فأرسل الضابط الخفير هناك الجندي السائق إلى هاني حيث توجه إلى مكان الحادث البعيد...

تهمة غريبة تطال ضابطا مثل أخي لا يؤمن بالغدر...

ثم الذي زاد الطين بلة أن الشارع تبنى تلك الخرافة فصدقها وراح يتغنى بها...

مظاهرات وشعارات...

يعيش ويسقط.. وعلى الألسن يتردد اسم هاني...

ودار حديث آخر حول إبائه، فروى آخرون أنه رفض مثل

=كانت وقتها محمية بريطانية، وأذكر أن أحد بيوتات آل حصونه في شهر رمضان زمن عبد السلام عارف دعوا الوالد الشيخ عبد الرؤوف عسكر إلى إحياء إحدى الليالي عندهم وقتها كنت أرافق والدي وكان عمري ١٥ عاما فسمعته يقول علنا لتلك العائلة أنا لا أحب حميد لأنه خان عبد الكريم قاسم فرد عليه ربّ العائلة معظمنا نحن آل حصونه نبرأ من خيانة حميد ولا نحبه.

تلك المساومة الرخيصة فحدثت مشادة وحوار صاخب بينه وبين الحصونه مما حدا بأخي إلى أن يخلع حذاءه ويرميه بوجه قائد الفرقة الذي جن جنونه فأمر بإخراجه من غرفته وممارسة أشد أنواع التعذيب عليه...

هكذا صورت الحكايات أخي في منفاه الأول العسكريّ...

نساء بعض الضباط اللائي يسكن قرب بيتنا يزرننا ويكررن أقاويل سمعنها من أزواجهن العسكريين فيذكرنها لزوجة أخي وكانت أمي تسمع فتكاد تنهار...

بعض من يلتقي الوالد ممن في عمره.. أو أبناء العسكريين ...

الحكايات تتسع وتتطور.. الشيخ.. يسمع ويهز رأسه..كان يعتز بحياته العسكرية ويرى في نجله الملازم الأوّل استمرارا له برتبة أرقى.. بدا أبي واثقا من براءة هاني، ولعله فقد صبره حين سمع عن خضوعه للتعذيب فراودته هواجس أن يلحق ابنَه إلى منفاه الأول ثم فكر وتردد كيف يغادر البيت في مثل هذه الظروف عندئذٍ استدعاني..جلست أمامه بكل خشوع كادت الجلسة تطول وأنا لا أجرؤ على أن أسأله لِمَ استدعاني.. راحت انامله تحرك خرزات المسبحة وسمعته يهتف بتسبيحة ثم رفع إليّ رأسه وقال بعينين

ذاهلتين:

الليلة تذهب إلى الديوانية تسأل عن أخيك!

قالت أمي بين الرفض والرضا:

هل تظنه يقدر؟

قلت شبهَ محتجٍ كأنّي في زيارتي لمعسكر الديوانية أغادر غرض اكتشاف شيء ما مجهول:

ألم يصحبني أخي قبلكم إلى البصرة!

وتلاشت المسافات لعيني.. من في مثل سني لا يرى العالم بعيدا.. البصرة كانت أولى المحطات في طريقي، ويوم صحبت هاني رأيت الطريق يطوى أمامي فأدركت في تلك اللحظة صغر العالم.. لا أدري الآن على الرغم من تطور وسائل المواصلات والاتصال.. وأجهزة البصر والسمع الناس يقولون العالم قرية صغيرة فأراه بعيدا.. أشتاق إلى أناس رحلوا عني إما إلى العالم الآخر أو إلى بلاد الغربة.. وقتها يوم لم يكن العالم بتلك الصورة رأيته رغم تنافر الأبعاد قريبا.. الديوانية أصبحت على بعد خطوات مني لأن هاني أصبح بها أسيرا.. موقوفا.. تحت التحقيق.. كيف أعبر عن حالات عاشها أخي هناك..وصلت محطة الديوانية فجرا وهبطت من القطار مع الهابطين...

هل نمت الليل كما نمت ليلة قدمت البصرة كأن هزات

القطار حركة مهد تسترخي لها عيناي.. مهد وطفل مثل ماجد الذي ذاب بعض صراخه في حمحمة القطار وهزات العربة فكنت أغط في نوم مثله.. فهل غفوت البارحة..ربما..!

بين كتفيّ قشعريرة برد وبعينيّ بقايا من نعاس.كان خيط الفجر الداكن يختلط بوجوه مبهمة تجري من حولي.. خلت أن هؤلاء العابرين يتطلعون فيّ فظننت، والوحدة تستفزني، أني في بلد آخر يختلف عن البصرة وبغداد اللتين أعرفهما من قبل.. لاحت محطة جديدة وشوارع أخرى ترى لو أخبرت من يعبرون من أمامي إني أخو الملازم هاني فهل أراهم يندفعون نحوي فيحملوني على الأكتاف لتعلو صيحات تختلط بصياح الديكة وترتفع من شحوب الفجر موجات غاضبة تهتف عاش هشام عاش هاني كما فعل قبل أيام تلاميذ مدرسة ثانوية المعقل؟

عمي هل تدلني على مقر الفرقة الأولى؟

أنت غريب؟

يسألني ذلك الرجل ذو الوجه النحيف الذي بادرته بالكلام:

جئت من البصرة!

إما أن تؤجر سيارة أو تمشي إنه بعيد وليس ببعيد في أطراف البلد لكنك شاب نشط ما شاء الله تستطيع المشي "

وأشار بيده إلى ناحية ما حيث دوار، وحديقة صغيرة، ومَعْلَم لم أتبينه جيدا"ذلك مركز المدينة لاتستدر شمال الفلكة بل الزم طريق اليمين ستمشي مسافةَ ثلثِ ساعةٍ ثم خذ الطريق الترابي على اليمين هناك تستطيع أن تسأل فيدلوك!

وقبل أن أنصرف عنه إلى حيث أشار أضاف:

إسمع بعض المدنيين من سكنة الألوية الأخرى يأتون ليسألوا الضابط في الفرقة عن إجازات لأبنائهم أو إخوانهم طريقة مضمونة لاتنس أن تبكي أمام الضابط..قل له إن أمك مريضة وأنتم بحاجة إلى أخيك الجندي بضعة أيام..لايهم سيذهب معك اليوم إلى البصرة بإذن اللّه!

كان ذهني حالما غادرت الرجل مشغولا بذلك الشيء القاتم الذي لاح لي عن بُعْدٍ عند الفلكة المطلة على مركز المدينة، وعندما وصلت أدركت أنه ظل شجرة كثيفة قد تكون شجرة يوكالبتوس نمت بمحاذاة بيت ذي طابقين فألقت بغصن من أغصانها فوق الفلكة.وقتها كم كان قاسيا أن أتصور غير الفجر، لو وصلت منتصف الليل لاضطررت أن أتعامل مع سائق سيارة للأجرة أو انتظر في المحطة حتى يحين الفجر.. ربما تنشط الكلاب الضالة عند الظلام وتداهمني .. الصبح أخذ يسفر فأشعر معه بالأمان.. عيناي تبصران من مسافات بعيدة كأنهما أمِنتا جوانب

الطريق القريبة مني.. بعض الأشباح البعيدة المتناثرة تتلاشى وبعضها يدلف على جانب الطريق .. لا أثر لأيّ حيوان..مع كل ذلك يبدو الطريق الذي سلكته أقل حركة من الشارع الذي يبدأ عند الفلكة من شجرة اليوكالبتوس .. ثلث ساعة حتى يطل الطريق الترابي وليس معي ساعة..رحت أسير وأسير، واجهني درب معبد ولم يكن هناك أحد لأسأله عن الفرقة الأولى. الاشباح التي سبقتني اختفت فالتفتّ لأرى أحدا خلفي يمكن أن أسأله عن الساعة الآن سوى أني أعرف أن الجنود لابدّ أن يلتحقوا بمعسكراتهم قبل الساعة السادسة مثلما يفعل هاني كل يوم قبل الفجر فتمنيت أن يكون هناك عسكري تأخّر عن الوقت المعلوم لعذرٍ ما فيرافقني في رحلتي هذه..لا أدري كم مشيت.. كما لا أعرف كم كنت سأدفع لسائق سيارة الأجرة حتى أصل متجاهلا قول أبي أن لا أتعب نفسي.. أوصاني فأعرضت عن نصيحته كنت أود أن أوفّر بعض النقود حتّى أثبت أني ذهبت ورجعت فنجحت من دون أن أكون مبذِّرا ، وما هي إلا دقائق بعد الطريق المعبد حتى واجهني الدرب الترابي فانحرفت معه وبعد خطوات من سيري الحثيث رأيت بوابة خشبية وحاجزا عن يمينها وثمة جندي يتنكّب رشاشة وفي أعلى الحاجز طاق خُطَّ عليه بلون باهت" مقر الفرقة

الأولى"!!

عندئذ تنفست الصعداء..

التقيت هاني قبل أن أراه...

وزال قلقي وخوفي من وحشة طريق سرته من دون أن ألتفت خلفي فوددت لو أرهفت سمعي وتحسست وقع أقدام خلفي لأيّ كائن يدلني على الطريق...

وها أنا أصل وحدي...

مقر الفرقة الأولى يشخص أمامي ..

هنا هاني والأمان..سيفاجؤه لقائي.. إني حزت الوجود كلّه.. لا أدري أيّة أحلام وردية شغلتني وكأن اللقاء ختام لمأساة عابرة.... تركت المدخل مع جندي من غرفة الحراسة عبر ممر تحفّه بعض أشجار الأثل واليوكالبتوس إلى بهو مستطيل يجتمع فيه الضباط... هناك وقع بصري على هاني.. كان بملابسه العسكرية.. النجوم الأربع على كتفيه.. بدا أنيقا حليق اللحية وإن ارتسمت على ملامحه بعض علامات القلق. كان محجوزا بين الضباط لايسمح له بمغادرة مقر الفرقة.. كدت أقفز لأطوق عنقه بذراعيّ.. فرحة جديدة بفرحة العيد.. ربما لفت دخولي الحاضرين كانوا ثلاثة فتوجه هاني إلى أحدهم قائلا:

سيادة النقيب أخي هشام!

فهز الآخر رأسة ورحب بابتسامة واسعة متسائلا:

أنت في المدرسة!

نعم في الأول الثانوي..

لديّ أخت وأربعة إخوة غيره كلّهم في الابتدائيّة.

ماشاء الله! الله يحفظهم!

تصور.. بطل جاء وحده من البصرة ليراني!

رتب النقيب "البيرية على رأسه" ثم نهض واقترب منا فنهض هاني وفعلت مثله، فقال النقيب ممازحا:

يبدو أنك تعجلت الالتحاق بنا أتحب العسكرية إلى هذا الحد؟

لا سيدي هشام يحب الأدب ويرغب أن يلتحق بالحقوق أو كلية الآداب!

رائع يا بني التحق بكل فرع لكن احذر أن تختار الفلسفة لأنها كلام فارغ!

قال عبارته وخرج فملت مع أخي إلى أحد المناضد البعيدة عن مدخل البهو..ربما تطلع بي أحد الضابطين من طريق خفي:

النقيب أكرم من جماعتنا "وأضاف وهو يتخذ مكانه على كرسيّ مقابل"

إي كيف حال الوالد والوالدة؟

بخير والحمد لله يسلمون عليك بتول تقبلك ونعمان وعباس وكامل ومحمد الجميع الجميع!

انتبهوا إلى محمد درسه أنت ونعمان!

لاتقلق!

عندكم أخبار من هناء في بغداد.

قد تكون سَمِعت من أمي بالحادث لكننا لم نخبرها بحجزك والتهمة حتى لاتقلق.

حسنا فعلتم لاتخبروها بأي شيء.. وهل مازالت الوالدة تسعل؟

لا أخفي عنك الوالدة تأثرت لغيابك والحكايات التي تسمعها... الانفعال.. صعوبة التنفس..

فتطلع إليّ بعينين مندهشتين وتساءل:

ماذا سمعت الوالدة؟

قيل إنهم عذبوك.

ها أنت تراني بكامل صحتي قل لها لاتقلق!

يكابر يريد أن يطمئن أمي..كان مثلي الأعلى..في كل شيء.. فارق السن بيننا جعلني أشعر أنه أبي وأخي..نحن نعتمد على راتبه ووظيفته.. كل لوازمي المدرسية واحتياجاتي تكفل هو بها.. أخي "نعمان" يحلم أن يكون ضابطا مثله وأنا الأقرب إليه أحلم أن أصبح مدرسا.. لم

أنسخ نفسي منه وطموحي شيء آخر يفترق عن أحلامه.. أجده لي أبا... لا يبالغ يكره الكذب... لا ينزل عن رأيه مقابل أي ثمن غير أني لا أدري لم يحاول أن يخفي أمر تعذيبه ربما لا يريد أن يبعث فينا القلق:

هاني هناك شيء مهم يريد الحاج أن يتيقن منه.. يطمئن قلبه.. ليس الحاج وحده كلنا نريد أن نعرف "خفضت صوتي على الرغم من خلو المكان كأني لا أريد أن يسمعني أحد" هل قتلت العقيد جلال؟

فاجأه سؤالي.. صدمة .. تمرد مني.. شكّ فيه.. نظر إليّ بعينين ثاقبتين.. هل يحتد عليّ فيصفعني ولم يفعلها من قبل.. في المدرسة رفعوني على الأعناق وهتفوا باسمي واسمه.. وحين طال صمته وأظن جسارتي تعدت حدودها فأسفت لسؤالي وودت لو أنّ لساني لم يزل أمامه، فقلت أسبقه الكلام:

أنت تعرف أن طلاب المدرسة رفعوني على الأعناق وهتفوا باسمك!

فنفث الهواء، وانقلبت صرامته إلى لطف ارتسم بابتسامة واسعة على شفتيه وقال:

دعك من هذا الهراء لا تسمح لأي شخص مهما كان أن يجعل منك هدفا بسبب فعل من المحال أن أقدم عليه مهما كان!

فنكست رأسي إلى الأرض خجلا وقلت:

أنا لم أتهمك لكن الناس!

فقال مؤكدا كأنه هو الأخ الأصغر وأنا الكبير الذي يستنطقه:

أخوك ليس جبانا حتى يفعل فعلا ثم ينكره، أنا، يا هشام ضابط ألتزم بواجباتي العسكرية، عندنا في العسكرية لو نظر الأقل رتبة إلى الأعلى شزرا مجرد نظرة بطرف العين لحوكم على هذا الفعل الشائن..جلال أقدم مني رتبة.. أنا لا أكرهه قط..كم من السنين أحتاج لكي أصل إلى رتبته .. اختلفت معه في الرأي نعم.. كان قوميّا وأنا يساري.. نعم .. أحب الزعيم وهو يكرهه.. صحيح.. هذه الأمور لاتدفعني للقتل ولو قتلت لما أنكرت. الجميع يعلم أني كنت خارج السرية حال وقوع الجريمة.. الضابط الشريف لا ينكر فعلا أداه.أخبر هذا الكلام لوالدي ولكل من يحاول أن يجعل مني بطلا بالباطل فهل بقي في نفسك شيء؟

أنا لا أتهمك لكن الآخرين عدوه عمل بطولة ورفعوني على الأكتاف لأني أخوك مع ذلك لم أكن أعرف شيئا سوى أنك حين قدمت انفردت مع أبي وقد عرفناها عادة منك أنك لاتنفرد بأبي في غرفته حين دخولك البيت إلا لامر ما...

فتطلع إليّ بعينين حنونتين ذاهلتين:

أنا دائما أحتاج إلى نصائح الوالد. ذلك اليوم سمعت بعض الجنود وضباط الصف خلال تجوالي بين القواطع يهددون ويتوعدون بعضهم يقسم على قتل العقيد.هذا كل ما في الأمر لذلك دخلت غرفة الوالد مباشرة حتى استشيره فمعظم الجنود في سريتي يساريون عنيفون وبعضهم يدعي أن العقيد مارس تعذيبه قبل الثورة!

إذا كنت تعرف أسماءهم ...

فنظر إليّ نظرة شزر وقال:

أخوك ضابط ليس مخبرا أو كاتب تقارير!

لزمت الصمت لحظات حتى هدأ:

يعني يمكن أن ترجع حال انتهاء التحقيق!

حسنا إنك جئت ولو لم تأت سأكون استدعيتك لا تظنّ أمر رجوعي سهلا أنا أنظر إليك رجلا ناضجا.. انس كونك صبيا في الصف الأول الثانوي وتذكر أنك رجل الأسرة الآن!

فقلت بسذاجة تامة:

مادمت ساعة وقوع الجريمة خارج السرية فلم لا ترجع؟

فنفث الهواء عميقا وقال:

هناك من يريد أن يلقي بالتهمة عليّ ما سمعتموه من أنهم ساوموني على أسماء بعض الجنود والمراتب،وأني انفعلت

بوجه حصونه والآخرين قد يكون من بين تلك الشائعات أخبار صحيحة.. لذلك كنت أنوي أن أرسل أحدا يأتي بك إليّ إذ أريدك أن تذهب إلى بغداد اليوم!!

قد يبدو سؤالي ساذجا لأني أعرف ولا أعرف.. كيف أصبح ذلك الضابط متهما بجريمة لم يقترفها.. لم يكن قاسيا على الجنود منذ تخرجه برتبة ضابط.. كان يعاملهم بلطف ومرونة ضمن القانون ووفق المباديء العسكرية.. لا يدع أحدا يسيء قط..بعد الثورة حدثنا عن جندي من جنود الكلية العسكرية عوقب خلال العهد الملكي بالجلد أمام التلاميذ.. ، رآى خشبة ثخينة توضع في عنقه ربطت يداه ورجلاه بسلك ثم هوى العريف الجلاد على ظهره العاري. أصبح ظهر الضحية أحمر.. أزرق.. اختلط الدم بلون الشمس حتى أغمي عليه.. ورأيت إذ كنت في الصف الخامس الابتدائي في بغداد مدير مدرستنا يضرب أحد الطلاب فلقة.. أمسك به الفراش من ساقيه بقبضة يده اليسرى ثم وضع يده اليمنى على صدره فجاء المدير يهوي على رجليه العاريتين بعصاه الطويلة.. انتهى ذلك الزمان.. كما يقول هاني لا أحد يجلد الجنود وأظنه ذكر الحادث بعد الثورة ليرسم في أذهاننا حلما جميلا يتحدث عن عموميات ويلتزم الصمت حول كل مايجري في المعسكر حتى أمام أبي أما نحن

تلاميذ الابتدائية فقد كنا نضحك ممن قام المدير بجلده تصورناها لعبة.. كان العقيد جلال – وفق ما سمعته عنه- قاسيا مرعبا ربما جلد أو أهان بعض الجنود خلال العهد الملكي وإلا لِمَ انتقموا منه بهذه الصورة لكن هاني الذي يرفض أن يُتَهم بجرمٍ هو بريء منه لا يرغب في الوقت نفسه - من باب الظن- أن يلقي وزر ذلك الفعل الفظيع على آخرين، فيبقى اللغز شاخصا أمامي إلى هذه اللحظة كيف يعاقب أخي بجريمة لم يرتكبها؟!

مهما يكن فأنا في حيرة من أمري أمرني الشيخ بالذهاب إلى الديوانية لكي أطمئن على هاني وإذا به يسألني أن أذهب إلى بغداد ، فخطر في ذهني بيت أختي:

هل هناك من وصية إلى "هناء"؟

لا لا.. لا تقلقهم ولا تمر بهم .. أنا الآن أوراقي أحيلت إلى محكمة شمس عبد الله[٢].. المادة٢١٤ لا تتعب نفسك..ستفهم فيما بعد هذه الأمور سأعطيك خمسين دينارا..سافر هذه الليلة إلى بغداد.. لتكون عند صديقي "عباس الحاج عليوي"

---

٢ - العقيد شمس عبد الله رئيس المحكمة العسكرية العليا ذو اتجاه قومي بعثي كان يحكم على أنصار الزعيم واليساريين بأحكام قاسية قطعية ويشكل حالة فريدة في تاريخ العراق إذ أنه يرأس محكمة تحاكم أنصار الحكومة ومؤيديها.

صاحب سوبر ماركت ومرطبات الصبايا في الكرادة، سلمه المبلغ وهو يتكفل بتوكيل المحامي قاسم كبه دون غيره!" وأكد بهزة من رأسه" قاسم كبة!

ثمّ وهو يربت على كتفي:

أرجع إلى المعقل حالما تسلم الأمانة!

هل من شيء آخر؟

لا تنس أن تخبر عباسا أني بريء وأني لا أخاف المصير، وإن كان الحكم المتوقع بحقي الاعدام فأنا أؤمن أن الحق ينتصر دائما أخبره أنه من المفارقات العجيبة أن يقف في محكمة الثورة أنصار الزعيم متهمين مع البعثيين وأنصار العهد الملكي!

بقيت معه في المعسكر إلى العصر.. تحدثنا كثيرا .. ومشينا داخل شوارع الفرقة.. وانتشيت لجنود ونواب ضباط وضباط يؤدون التحية إلى أخي وودت لو أن بتول معي .. كانت معجبة برتبة هاني وطوله، وملابسه العسكرية.. خلت أن التحية لي أنا وإن كنت لا أرغب أن أصبح ضابطا... ياترى ونحن وحدنا.. لو يغتنم هاني بعض الفرص فيحدثني عن التحقيق معه، وقائد الفرقة والضباط الذين يستنطقونه.. غير أنه بقي إلى آخر لحظة يحافظ على خصوصية الموضوع وما جرى له كأنّه يروم أن يبعدني عن تلك الأجواء... بعدئذٍ

كنت أنوء بحمل جديد للمرة الأولى.. خمسون دينارا في جيبي فما أثقلها.. وحين مرّ العصر طلب هاني من أحد الجنود أن يذهب معي إلى المدينة، فرافقني إلى أحد الفنادق وأوصى صاحبه أن يوقظني الساعة الثالثة عند الفجر لألتحق بقطار بغداد الذي يمر بمحطة الديوانية في الساعة الرابعة....

لم أخرج من الفندق قط..

في جيبي مبلغ يعيقني ويشلّ حركتي..

نقود لكثرتها أخاف منها.... جبل.. قيد ثقيل يشد رجليّ إلى الأرض..فاكتفيت بشطيرة زودني بها أخي للعشاء.. كنت "مضطربا حزينا خائفا على الخمسين دينارا.." الأمانة الأولى التي حملتها في حياتي... خمسون دينارا في جيبي دفعة واحدة أنا الذي رأيت الدينار في بعض المناسبات.. طالب في الأول الثانوي يحمل مبلغا كبيرا من المال.. جبل كبير في جيبي يجثم على صدري.. تقلبت في الفراش، تحسست جيبي عدة مرات.. كم مرة انقلبت.. ولربما بدت يدي أسرع مني تتشبث بالجيب الذي وضعت فيه النقود.. حتى حان الوقت فغادرت الفندق حينئذٍ طالعتني صفرة الطريق ومصابيح المدينة التي خففت من الرهبة.. وفي المحطة وقفت أنتظر وأنتظر...

كان هناك أناس ينتظرون مثلي قطار بغداد.. رجال

يرتدون الجلابيات.بعضهم السروايل.. نساء بعبآتهن السوداء.. كأنهم يرون قلقا بعينيّ.. عقرب في جيبي أو ثعبان.. صبي صغير وخمسون دينارا..

يكفي أني رحت ابتعد عن أيٍّ من المسافرين..أيّاً كان أمرأة أم رجلا.. أشك فيه أظنه نشالا.. سارقا.. وقفت وحدي.. إلى أن جاء القطار ...

وحدث مالم يكن في الحسبان..

"كانت الأبواب مغلقة.. تكدس عليها الجنود نياما، طرقت.. دق آخرون بقبضات أيديهم وراحاتها.. ضربنا كثيرا ولا أحد يفتح .. إنهم يروننا من خلال الزجاج ولا أحد يهمّ بفتح أبواب العربات التي غصّت بالمسافرين،وإذا بصافرة القطار" تنطلق فبدأ يتحرك متباطئا مثل تمساح كسول.. حشّت معه الخطى أتوسل من في الداخل.. كانت رقبتي ممتدة إلى فوق حيث زجاج النوافذ.. تلك اللحظة نسيت الخمسين دينارا وانشغلت بالقطار سيذهب دون أن ألحقه، مازال في حركته البطيئة.. وأنا أهرول معه.. رقبتي إلى الأعلى أتوسل الآخرين... عم أفتح .. اللّه يخليك.. خالتي.. وكما لو أن شيئا ما حدث.. شيء أكبر من قدرتي لعلني أصدق لو أني في سن أكبر.. أهرول وأتوسل وإذا بيد تمتد إليّ من على السطح.. يد جندي يربض على سطح إحدى

العربات.. ومن دون أن أفكر بالعواقب...على الأقل المخاطرة والسقوط أو أن تنسل الخمسون دينارا من جيبي.. على الرغم من كل ذلك مددت له يدي، فانتشلني من الرصيف إلى حيث يجلس.. لا أظنه كان يقصدني.. إذ اعتاد هو أو أي من الجنود الذين لا يقطعون تذاكر عمدا أو لا يجدون مكانا أن يقفزوا على سطح القطار فيمدون أيديهم لكل من يرغب أن يصعد إليهم... ثم يعود كل منهم إلى نومه أو شأنه الخاص..

وها أنا أستقرّ على السطح،وكان الجندي الذي انتشلني يعود إلى تمدده وغفوته ..

لم أتبين ملامح وجهه من على الرصيف حيث عاد الظلام حالما غادر القطار المحطة، وسادت العتمة ثانية أجواء الصحراء، فغطت كل شيء ماعدا بعض أنوار خافتة لنجوم تتلألأ بعيدا في السماء، الجنود على سطح العربات يستلقون متدثرين بمعاطفهم وبعضهم يدخن ثم يضطجع ثانية، ولم أفكر في الهواء البارد الذي يلفح وجهي ويجلد جسدي ولو فكرت بما يحدث لي لجلبت معي معطفا من البيت، وأظنني تجاهلت البرد وقسوة الهواء بما شغلت به فكري عن النقود حتى إنني تحسست جيبي أكثر من مرة لأتأكّد أنها لم تفلت حين انتشلني الجندي من على الرصيف.

كان الوقت يمرّ بطيئا وذهني مشغول عن البرد والنوم في حين راح الظلام ينجلي رويدا رويدا حتى أخذت حركة القطار تخف..وسيره يبطيء.. وبانت ملامح الفجر.. سمعت جنديا يقول لآخر إنها الساعة السادسة الآن فتململ أكثر من جندي. بقي بعضهم راقدا دون أن يتحرك، ورفع صاحبي رأسه فتبينت قسماته وسط النور الخافت.. كان وجهه ذا ملامح طفولية وسألني بابتسامة:

هل تنزل في الحلة؟

كلا إني قاصد بغداد!

أهلك في بغداد!

قلت متململا:

بيت أختي "وأضفت" عليّ أن أصل مبكرا!

ماعليك في هذه الحالة إذا كنت تروم الوصول سريعا إلى بغداد إلا أن تنزل في الحلة ثمّ تنطلق إلى بغداد أسرع لك، أظن الأجرة ليست كثيرة لأن القطار هذا بطيء وسوف يصل متأخرا إلى بغداد!

أكثر من هاجس يدفعني إلى أن أقتنع بكلامه، ماعليّ إلا أن أصل مبكرا لألتقي صديق هاني صاحب المحل، ومايدريني لعلّ فوق سطح القطار بعض النشالين من الجنود.. قد يشكون في فيسرقونني أو على أسوأ الاحتمالات

يرمونني من سطح العربة إلى الأرض بعد أن ينهبوا ما في جيبي، وعندما توقف القطار تماما قفزت إلى الرصيف..لم التفت ورائي، وغادرت المحطة، وهناك عند موقف السيارات، قبل أن أستقلّ سيارة إلى بغداد، رأيت الجنود الهابطين من العربات يندفعون إلى بائعات "القيمر"[٣] كلّ منهم منهمك مع صحن قيمر وصمونة[٤] كأن المسافرين من البصرة إلى بغداد ينسى كل منهم أتعاب الرحلة الطويلة وبطيء القطار واهتزازه المستمر بصحن قيمر وصمونة..فما أعجبها من رحلة مضنية تنسى قسوتها بقطعة صمون وقيمر كأن من لم يتناول ذلك الفطور العجيب من الغرباء العابرين لم يزر المدينة قط..

مع ذلك لم أفكر في الفطور ..

في جيبي شيء ثقيل يلدغني مع ذلك أتحسسه بين وقت وآخر.. تناسيت كلّ شيء .. في بالي سيارة أجرة ، والعلاوي، والكرادة ومقابلة عباس الحاج عليوي الذي

---

٣ - القيمر هو القشطة أو "cream" وقد اشتهرت مناطق عديدة في بغداد بصناعة القيمر منها بغداد والحلة والعمارة.

٤ - الصمون هو نوع من الخبز يخبز في العراق مستطيل الشكل يمكن فتحه بسكين ليدس فيه اللحم أو الفلافل ويفضل كثير من العراقيين تناول القيمر مع الصمون لا الخبز العادي المألوف لديهم في وجبات الطعام.

سلمته النقود وكأني ألقيت من على كتفي كثبانا من الرمال!

أخيرا ارتحت!!

٤

هاني نجم

يبدو لي أنّ هناك خطأ ما حقا ...

شيئا خفيا لايدركه أحد سواي..

فقد تبدو الأمور في غاية اليسر لكنها في الواقع أبعد ماتكون عن ذلك!

حين كلمت أخي الأصغر الدكتور هشام الذي أصبح مدرسا في جامعة بغداد قال لي أنت الآن تهم بالسفر إلى ألمانيا وها أنا أعود من جديد إلى البصرة مثلما بدأت معي من قبل قبل أكثر من ربع قرن... إنّه عام ١٩٥٩ ففي هذا الوقت الذي هاجرت فيه إلى البصرة تساوت كل المدن.. برلين بغداد البصرة.. نيويورك.. أي بلد كان.. أية مدينة.. لافرق أن تسافر أو تهاجر إلى مكان ما إذْ، على مايبدو، أن رحلتي الأولى إلى البصرة هي التي بدأت المأساة التي لما تنته بعد.

لم أكن مخطئا حين وقع اختياري على هشام أخي الأصغر الذي أكبره بعقد من الزمان.. أنظر إليه ابنا لي

وصديقا..وعلى الرغم من أني عسكري صارم في إطاعة الأوامر وتنفيذها بدقة متناهية إلا أني مرح في البيت لا أجبر أحدا على فِعْل شيءٍ لا يرغب فيه.

قلت إن أخي يؤانس زوجتي وابني البكر خلال فترات غيابي في المعكسر وليالي أكون خفيرا هناك قبل أن أجلب العائلة معي،فأحمِّلها من غير أن أدري عبئا أكبر مما تقدر عليه..ولعل المشاكل لسوء الحظ هي التي اختارتني وقطعت عليّ الطريق.

كانت علاقتي بمعظم الضباط في معسكر محمد القاسم علاقة طيبة.. غير أن الضباط كلهم لم يكونوا يساريين ولا شيوعيين أو من التيار الذي يحب زعيم الثورة عبد الكريم قاسم.. كان هناك تيار من القوميين والبعثيين يعيش بعقلية العهد الملكي.. العقاب الصارم.. القسوة مع الجنود.. التعامل الفظ.. أعرف جيدا أن الحياة العسكرية قاسية صعبة جافة.. قلقة لاتستقر بمكان،ماعليك قبل أن تضع قدميك بأرض حتى تدرك أنك أسير الوقت الذي يحدّد وجودك..ذلك ليس بالأمر الجديد عليّ فكثيرا ماغاب أبي عن البيت أياما... شهرا أو أكثر.. وقد اخترت هذا الطريق بنفسي منذ أنهيت الثانوية.. لا وساطة ولارشوة..هكذا قدَّمت أوراقي يدفعني طموح لا محدود.. ابن عائلة متوسطة

الحال لانفوذ لنا في الحكومة.. منذ الطفولة رأيت والدي عسكريا فأحببت أن أقلده. بعد ثلاث سنوات أتخرج فتستقر نجمة على كتفي.. سيصبح رأسي أعلى من النجوم. أول خطوة أقدم عليها هي أن أجعل أبي يرتاح.. يجلس في البيت.. راتب ملازم كاف ليجعل عائلة مثل عائلتنا تعيش في بحبوحة.. العسكرية حياة جديدة سمعت عنها من أبي فعشتها وعشت قسوتها بكل أحاسيسي، وعايشت شدتها، وحين تخرجت نسيت شدة الكلية وقسوة التدريب. فقط كان هناك مشهد يلوح أمام عيني لم أطق رؤيته قبل أن أرى العقيد جلال المسكين يسحل ذلك المساء الذي لف بالضباب كل طموحي... كان المدربون والقادة يمارسون معنا عقوبات صارمة اعتدناها بمرور الأيام.. نغطّ خلال شهر كانون في بحيرة ماء بارد آسن إلى رؤوسنا.. نقف كالمصلوبين في شمس تموز الحارة بسبب تملل أو خطأ ما من أحدنا.. عقاب جماعي لكنْ في يوم ما طالعنا مشهد يكاد بما ينطبع فيه من عنف يشبه النفور الذي سببته لي جثة العقيد جلال.. وجدنا العرفاء والضباط يدعوننا نحن تلاميذ الكلية إلى وليمة جلد.. جندي لا ندري ماذنبه.. قد يكون سرقةً.. تحرشاً بفتاة قريبة لضابط.. سخريةً من رتبة كبيرة.. المهم انه اقترف ذنباً ولابد أن يكون ذلك الذنب كبيرا.. توقفنا

عن التدريب نصف ساعة بدت كافية لمشهد مقرف وقعت عليه أعين التلاميذ.. تحلقنا حول المتهم المجرم.. وقرأ ضابط بيان الجلد ثم جرت الأحداث سريعا كما لو أنها عبرة لنا لنتمسك بما رأينا وسمعنا في المستقبل... خلال دقائق تحركت خلية كالنحل وحضرت عن قرب سيارة إسعاف ظهر في الدائرة بيننا عريفان ضخمان يصحبان جنديا مكشوف الرأس حليق الشعر عاري الظهر، وحالما وصل الثلاثة عند دائرة صغيرة منتصف دائرة التلاميذ حتى توقفوا ثم تقدم جندي آخر يحمل طوقا خشبيا ثخينا ذا ذراعين طويلتين، أدخل العريفان رأس الجندي في حلقة الخشبة..مدا يديه على طول الذراعين الخشبيتين وأحكما حلقتين معدنيتين حول الرسغين ثم انبرى الجلاد يلسع ظهره بسوط جلدي ذي صفير في الهواء.. ضاع مني العد.. ومع كلّ سوط يلسع تنقلب قسمات الجندي المصلوب إلى بؤرة من بشاعة وقبح يرسمها على وجهه سوط يستقر فوق ظهره فتختلط بصفيره صرخات مدويّة وبين فترة وأخرى يطلب منا الضباط أن نستدير مثل بندول الساعة حتى تسنح الفرصة لمن رآى وجه المصلوب الحي من جانب أن يرى من الجانب الآخر ظهره الذي بان أشبه بقطعة من اللحم مفرومة حمراء زرقاء.

أتصرخ من سوط أيها الوغد الأحمق كيف إذاً تقابل

بصدرك رصاص الأعداء؟!

ولم يتوقف السوط إلا حين أغمي على الجندي... فَرُفِعَ الطَّوق عن رأسه وحُلَّت يداه لتتحرك سيارة الإسعاف فنعود خلال لحظات إلى التدريب وكأن شيئا لم يكن...

حقا ليست هي المصادفة التي جعلتني أنسى كل القسوة وأحتفظ بهذا المشهد وحده في ذاكرتي، لتظل عبارة الضابط الساخرة حين صرخ الجندي من ألم السوط عالقة في ذهني.. فكل من هم يدربوننا الآن من جنود ومراتب أدنى يمكن أن يؤدوا لنا التحية في المستقبل حالما تتلألا النجوم على أكتفانا... ومن حقنا أن نوقع بحقهم عقابا شبيها بما حدث اليوم.. النجمة وحدها هي التي تحلّق بك.. عشر سنوات مرت على الحادث ومارأيته من جلد لجندي في السنة الأولى لالتحاقي بالكلية العسكرية ظل عالقا في ذهني إلى يوم مصرع العقيد جلال... أما مايحدث الآن فأراه واسمعه بعد أشهر من الثورة.. هؤلاء الجنود الأدنون عايشوا عهدا آخر من قبل.. الله الوطن الملك الشخص الذي أقسمنا أن نخلص له قُتِلَ أبشع قتلة ولن يكون هناك نقيب أو عقيد بمنجى من عقاب الأغلبية.. النجوم والأوسمة لم يعد لها مفعول السِحر.. كثير من الجنود رأوا في بعض الضباط وجوه تماسيح وأفاع ونمور كاسرة تنقض عليهم لأدنى غفلة.. ومن غريب

المصادفات أن أي استفزاز لضابط قومي أو بعثي من أي جندي يلقي بظلال من الشك على الضباط اليساريين والشيوعيين.. كأننا نحن الذين نحرض الجنود على الضباط.. بدورهم بدا الجنود غير مبالين كأنهم هم الذين قتلوا الملك ونوري السعيد.. بتنا نسمع كلاما ذا مسحة انتقام.. مَنْ هؤلاء.. الملك والوصي ونوري السعيد لقوا حتفهم أول يوم الثورة.. فمن هؤلاء.. مَنْ النقيب فلان والملازم فلان ذو الهوى الناصريّ هل ينسى أن خالته الزوجة الصغرى للوصي عبدالإله؟ نحن لانخاف معنا الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية..والدول الاشتراكية.. جنود سذّج راحوا يخلطون الحقائق بالأوهام يضفون المهابة لمن يحبون، ويتمردون على من يكرهون، تصوروا أن دورهم جاء لينتقموا ولم يكن انتقامهم منا.. بل من يكره الزعيم والاتحاد السوفيتي والصين وجدوا فيمن يمجد عبد الناصر وجه غول وتمساح وأفعى تعود بهم إلى زمن الجلد ونظرة الاحتقار.. وسوء الطباع.. إثر أيّ استفزاز نرى العقيد جلال متجهما.. رحت أسأل نفسي ياترى هل نحن متفقون حقا مع الجنود.. لا أخفي أنا تأثرنا بشعارات قرأناها وسمعنا عنها قبل الثورة ثم بعد ١٤ تموز ازداد تعلقنا بتلك المباديء غير أن ذلك لا يعني تخطي الأوامر العسكرية والمباديء التي تلتزم

بها كل جيوش العالم.. في اليومين السابقين للحادث عقد جلال جلسة لجميع الضباط وبدأ ينتقد الزعيم خلال حديثه معنا ، يصفه بألفاظ.. كلام مبهم باطنه ذم وقدح.. فوضى.. تسيّب.. كثير من الضباط آسفون لاشتراكهم في الثورة.. الشعوبية.. الموجة الحمراء الحاقدة.. هناك كفر وإلحاد يغزو البلد.. الأبناء لا يطيعون آباءهم.. والزوجات يهددن أزواجهنّ.. الجنود يتمردون على الضباط..أصبح الأدنى يأكل الأعلى.. وإن لم يضع عبد الكريم قاسم حدا لهؤلاء الغوغاء والفوضويين فستخرب البلد.. قلت إني هادئ الطبع أتجاوز عن كثير من الاستفزازات.. صديق للجنود لا أتساهل قط في تطبيق الأوامر.. هناك حاجز بيني وبينهم من دون أن أشعرهم أني الأعلى وهم الأدنون.. نهضت وقلت مقاطعا :

سيدي إنه لمن الخطأ أن أنتقد أنا الملازم الأول ضابطا مثلي يحمل الرتبة ذاتها أمام ضباط أقل مستوى منا..أما الزعيم فهو أعلى رتبة في البلد فكيف تنتقده أمامنا نحن الأقل رتبة منك ومنه.. هذا غلط.

ربما كان في كلامي شيء من الحدة.. غير أني كنت متماسكا.. كمن يلقم آخر حجرا.. هكذا تخيلت نفسي، فرد بصوت متهدج:

كان عليك ألا تقاطع.. بصفتك ملازما أول ارفع اقتراحك

إلى الرتبة الاعلى منك لا أن تساهم بنفسك في الفوضى" وعقب ساخرا": إذا كان الضباط بهذا المستوى فكيف يكون الجنود!

عبارته جعلتني أخرج عن طوري بصورة غير مألوفة عني مع الجنود:

أنا مؤدب أعرف الأدب جيدا أحافظ على شرفي العسكري وبلدي وزعيمي أما قليل الأدب فلا حاجة لأن أذكر من هو!

زعق في وسط ذهول الضباط بصوت عال ولعل الجنود الحراس الواقفين بباب القاعة سمعوا صوته:

أخرج.. أخرج .. كفى..

فقلت قبل أن أخطو إلى خارج القاعة:

مثل هذا السلوك سيجر علينا وعليكم الويلات .. ها أنا خارج ...

وخرجت من القاعة من دون أن أهدد أو أتوعد.. كنت منضبطا إلى أقصى درجة ملتزما بالشرف العسكري حتى إني أديت التحية العسكرية للعقيد الذي طردني.. فكيف ياترى أصبحت بطلا يرفع الآخرون أخي على الأكتاف فيهتفون باسمي واسمه.. الناس.. الشارع نفسه.. المدارس.. العمال كانوا يزيدون الطين بلة بذكرهم اسمي.. هذا عمل

غدر.. عمل خسيس لايقترفه ضابط أقسم أن يحافظ على شرفه العسكري.. كل ما هنالك أن الجنود بعد قتل الملك والوصي ونوري السعيد أعلى سلطة في البلد لم يعودوا يخافون من أي ضابط.. حوادث كثيرة تطاول خلالها جنود على ضباط، ولما كنا نحن اليساريين نعاملهم بلطف فقد احترمونا وأصبح الضباط القوميون والبعثيون هدفا لاستفزازاتهم، قيل لقبوا الزعيم بصاحب الأذنين، وزاد هؤلاء السذج تمردا مايسمعونه من سباب على الزعيم والمهدواي وأعضاء محكمة الثورة يصدر عن إذاعة القاهرة فخلطوا العمالة بعبد الناصر وأتباعه واندفعوا بترديد شعارات لايفهمونها والهتاف لبلدان لايدرون أين هي في شمال الأرض أم الجنوب!

أما حدث قبل الجريمة بيوم فهو فضيحة كادت تودي بالشرف العسكري في معسكرنا النقيب شوقي رضا" الشيوعي بعث مُراسِله بمهمة داخل المعسكر. وإذ قابل عَرَضاً الملازم القومي "فريد نامق" استفزّه ساخرا: والدك شوقي يسلم عليك ويقول لك أترك التمثيل وتعال إليّ حالاً. ومن غريب المصادفات أنّ أيّ استفزاز لضابط قومي أو بعثي من أيّ جندي يُلقي بظلالٍ من الشك على الضباط اليساريين والشيوعيين كأننا نحن الذين نحرّض الجنود على الضباط.

بدورهم بدا الجنود غير مبالين كأنهم هم الذين قتلوا الملك ونوري السعيد.. بتنا نسمع كلاما ذا مسحة انتقام.. مَنْ هؤلاء.. الملك والوصي ونوري السعيد لقوا حتفهم أول يوم الثورة.. فمَنْ هؤلاء.. مَنْ النقيب فلان والملازم فلان.. نحن لا نخاف.. إثر الخبر السخرية، رأينا العقيد جلال مُتجهّما، لكن النقيب شوقي لم يغفر للجندي زلّته، جعله يزحف مسافة ثم أمر بحبسه ثلاثة أيام. مع ذلك عدّ الضباط القوميون العقوبة تمثيلية فجّة. رحت أسأل نفسي يا تُرى هل نحن متفقون حقا مع الجنود؟

هناك جريمة تختلط بنكتة..سخرية سوداء استهدفتني قبل أن تقع على أحد غيري.

مساء حدوث الجريمة كنت خارج المعسكر حيث رآى آمر الفوج، وهو يساري معروف، أن يبعدني بعض الوقت عن المعسكر فأرسلني اليوم ذاته إلى "الدريهمية"بواجب يخص الإشارة واللاسلكي، وفي اليوم نفسه تابع العقيد واجبا لسرية أخرى قريبة من سريتنا ويبدو أنه مرّ على السرية التي باشرتُ العمل فيها عند الغروب ربما ليراقب مافعلته في أثناء غيابي ليختلق حجة ما فينقلني إلى مكان بعيد في الشمال ربما الموصل أو كردستان..

ولعلها منيَّته دفعته إذ ظن أنه يمكن أن يختلق سببا ما..

فهل اندفعت فسبقت الضابط الأقدم مني في التصدي له. معظم الضباط اليساريين يعرفون العقيد جلال ويسكتون عنه لا خوفا بل كرها له.. النقيب آمر السرية يسميه الكلب المسعور.. كلب عبد الناصر أو كلب عبد السلام يعني أنه كلب التابع.. فلم نتعب أنفسنا معه.. يظن الكثيرون أنه قومي الهوى يضمر شرا للعهد الجديد

مع ذلك لم أفكر قط بقتله..

لا أنكر أبداً أني سمعت أصواتا خلال الظلام عند تفقّدي المعسكر تتوعده وغيره بالموت..ميزت تلك الأصوات وعرفت القائلين.. ولم أرد أن أنحدر إلى مستوى الجنود فأبعث في طلبهم وأحاسبهم. رحت أفكر بالإجازة.. أرتاح بضعة أيام في بغداد.. قبل أن تحصرني المفاجأة فأرى الناس في البصرة تهتف وتلهج باسمي.. اختمرت في رأسي فكرة أن أخرج من هذا الفلك المشحون عشرة أيام أقضيها عند أختي في بغداد ثم أعود لأجد قرار نقلي.. لذلك حين دخلت المنزل بعد عودتي من معسكر الدريهمية انفردت بالشيخ الذي اعتدت أن استشيره في أية خطوة جديدة أروم الشروع فيها..

لا أكثر من أن أحدثه عن نيتي في طلبي إجازة قصيرة أقضيها عند أختي...

هكذا نويت...

لكن....

ما كدت أخطو داخل غرفة الشيخ الوالد حتى سمعت طرقات على الباب، وإذا بالجندي المراسل يخبرني أن هناك مصيبة حدثت.. مفاجأة غير متوقعة.. خبر لا أصدقه.. شيء رهيب في المعسكر.. قال إن الضابط الخفير في معسكر محمد القاسم تلقى إشارة عن الجنود المرابطين في الشعيبة. أخذوا يهجمون على العقيد جلال.. يصرخون في وجهه.. إنه عميل.. مارس الجلد في العهد الملكي.. لينقذه عبد السلام وإلا فليطلب النجدة من عبد الناصر.. لا أبالغ إن الخبر فاجأني.. كيف يتقابل عقيد وجندي.. عقيد رتبة بينها والرتبة التي يحملها زعيم الثورة درجة واحدة.. النقيب الشيوعيّ آمر السرية يفخر بستالين الذي أُسِرَ ابنه الجندي في الحرب العالمية الثانية إذ رفض عرضا من الألمان بتسليم جنرال ألماني أسير قائلا: لا أبدّل جنديا بجنرال.. مهما يكن.. الصدمة استهلكتني.. خلتني في موضع العقيد جلال.. سألت المراسل: أما من أحد في المعسكر أين الضابط الخفير؟ فرد عليّ إن الخفير ملازم الإعاشة عماد فأدركت أنه لم يكن بإمكانه ان يمنع الجنود فهو محسوب من جماعة عبد الناصر.. وجنود سرية النقيب شوقي، السرية الأولى، وجدوه الأضعف في حلقة الضباط..

كانوا في المعسكر ينقلون ما يشاهدونه أيام عطلتهم يوم الجمع في السينما من نكات ومشاهد ساخرة لاسماعيل ياسين عليه، ومغامرات فريد شوقي، ووحشية محمود المليجي، فوجدوها فرصة ليلة خفارته: فريد شوقي.. جريمة تختلط بنكتة.. سخرية سوداء استهدفتني قبل أن تقع على أحد غيري، وغاية مافعله تلك الليلة الضابط الخفير الذي وجد نفسه بين الحياة والموت أنه بعث بإشارة إلى معسكر محمد القاسم.. ومن سوء حظي أن السرية التي هاجمت العقيد جلال هي السرية التي تحت أمرتي.. فلا غرابة بعد في أن أسأل لم قصد الجندي المراسل منزلي ولم يقصد منزل أي ضابط آخر..

كان بيني وبين الشعيبة حيث مكان الجريمة أكثر من مسافة عشرين كيلومترا... فطلبت من الجندي أن ينطلق بأقصى سرعة لعلني أصل قبل أن تقع مصيبة ما وعندما أشرفت على مدخل تجمع السرايا في الشعيبة كان ضوء المساء يختلط بنور المصابيح الشاحبة وضوء سيارة الجيب الساطع ... كانت عيناي تخترقان الضجة فتقعان على مشهد غريب يقشعر له البدن.. جنود ملثمون أغلبهم من سريتي.. بسطاء أليفون عاملتهم بلطف ورقة ورفعت حاجز الخوف بيني وبينهم.. هاهم يسحلون بقسوة وضراوة جثة العقيد

جلال.. قلت ربما سمعت أصواتا تنادي بقتله وشنقه على عمود الكهرباء.. وقد أكون تبيَّنت أصحاب تلك المقولات فعددت ما نطق به هؤلاء الضعفاء المهووسون بالخنوع والمشبعون بالذلة نمطا من الخرافة.. أحلاما من المحال يصعب تنفيذها.. لايجرؤ جندي أن يقتل عريفا فضلا عن سحل جثته وسط المعسكر فكيف والجريمة تجاوزت إلى ضابط كبير والأدهى من ذلك أن من قام بهذا الفعل الشنيع جنود سريتي! نعم الجنود الذين أشرفت عليهم بنفسي وغذيت فيهم روح الحماس وحب العهد الجديد..الموت للخونة.. عاش الزعيم عبد الكريم قاسم.. يسقط عبد الناصر.. الموت للاستعمار.. محكمة الثورة: المهداوي.. باسم الشعب.. صرخت قفوا. توقفوا.. قفوا أيها الملاعين.. جميل.. ياسين.. نمر.. صلاح.. حسن.. أعرفهنم واحدا واحدا..وفي اللحظة التي سمعوا صوتي انفضوا من حول الجثة.. وهرعوا يتلاشون داخل قاعات النوم..

ذابوا كما ذاب الملح في الماء...

اختفوا

لاضجة ولاصراخ..

فخطوت نحو الجثة التي انكفأت على وجهها.. بقع من الطين والبلل تغطّي قميصا ممزقا.. وحبل يلتف على العنق..

ثم هناك قدم بحذاء والأخرى عارية.. وانا وبعض الجنود من سرايا أخر ننظر فاغري الأفواه.. ماالذي حدا به ليلتحق بسريتي بعدما غادرت.. لا أشك أنه جاء ليلتقط بعض هفواتي حتى يسارع بنقلي إلى مكان بعيد.. اقتربت من الجثة وأشرت إلى بعض الجنود أن يقلبوا العقيد على ظهره.. فبدا لي وجهه وسط ضباب النور موشحا بالكدمات والبقع الزرقاء..عيناه جحظتا كأنهما تحملقان فيَّ.. كلُّ ملابسه ممزقة.. بدلته تلطخت بالقذارة فاختلط الدم بالوحل.. هذا الوجه الوسيم والشعر الخفيف ينبيء عن صورة مرعبة..قال في القاعة قبل أن أقاطعه فيطردني:

إن هناك من الضباط من يسمع جنودا يهددون ويشتمون ضباطا مثل ذلك كفر في العسكرية!

تلك الدقائق رأيت في وجهه الملطخ بالدماء مستقبلي الغامض.

حياتي الجديدة...

كأن الجنود التابعين لي قتلوني معه.. قتلوا مستقبلي.. بينه ورتبة الزعيم التي أصبح يحلم بها كل ضابط مرتبة واحدة..

سألت الجنود بعصبية:

أين الضابط الخفير؟

قال لي أحد العرفاء:

في غرفته خائف أن يصبح مصيره مثل هذا الوغد!

ألم يتصل جندي التلفون بالإسعاف أو بالمشفى؟

كلهم ياسيدي خائفون!

للوهلة الأولى أبدو عاجزا لا يمكنني أن أفعل أيّ شيء.ليلة القتل والسحل فقدت الثقة بجنودي وسريتي.. والنجمتين اللتين على كتفي.. لو كنت أنا خفيرا.. أو كان الضابط الخفير شيوعيا أو من اليساريين والمحسوبين على جماعة الزعيم.. لأمر الجنود بالرجوع إلى ثكناتهم حالما تباشر الفوضى سمعه، ومن سوء حظي أن يكون عماد ضابط الإعاشة القومي خفيرا تلك الليلة.. من حسن حظه أنه انزوى في غرفته خائفا بداية المعمعة ليتصل عبر الهاتف بمعسكر محمد القاسم وإلا لكانت نهايته شبيهة بنهاية العقيد جلال..

ولربما لوعرف الجنود نيته لقتلوه قبل أن يلجأ إلى جهاز اللاسلكي...

لا أقدر أن أفعل أيّ شيء سوى أن أتصل بالإسعاف وآمر الفوج.. ثم اذهب إلى غرفة الملازم الخفير لأسأله عما حدث، فوجدته على وشك الانهيار..وجهه شاحب كأن الموت يحوم حوله.قلت له مستهجنا وضعيته التي وجدته عليها:

ماهـذا؟ أنـت ضـابط كـان عليـك أن تتحلـى بالشـجاعة والجرأة فتحمي عن العقيد.

قال ومازال الانهيار يتآكل في جسده المتعب:

سيدي اربعة ملثمون برشاشاتهم اقتحموا مكتبي أمروني أن أبقى وإنهم سوف يشنقونني إذا ما تحركت!

على الرغم من كل الجهود التي بذلتها في إيقاف سحل الجثة، وردع الآخرين وتأكيدي أني لوكنت موجودا ساعة الحدث لفديت العقيد بنفسي، أدركت، للوهلة الأولى، أن المعسكر وكبار الضباط من القوميين لم يقتنعوا بأيّ دليل سقته وأيّة حجة لجأت إليها، الجميع شَكّوا فيّ حتى اصدقائي في المعسكر الشيوعيون واليساريون.. ظن الآخرون أني بدأت مع الشيوعيين وأنصار الزعيم حربا على القوميين والبعثيين. كان يحزّ في نفسي أن الشارع البريء المتعاطف معي أخذ يرسم لي صورة بطولة ضخمة وكلٌّ في قرارة نفسه يودّ لو يمنحني درجة من البراءة والنقاء في حين بدت تلك المحاولات والأخبار والإشاعات المزيفة تثير الشكوك حولي أكثر فأكثر!

بعضهم ذكر أني قدت حركة في المعسكر لأطهره من العناصر القومية الخبيثة!

وبعضهم ذكر أني أحبطت مخططا لاغتيال الزعيم.

وهناك من تحدث عن مؤامرة..

في المدارس والميناء مظاهرات...

وفي المقاهي والبيوت والدوائر أحاديث..

فهل يدرك الآخرون أن فرحهم سيكون، من هذه اللحظة، مسمارا في نعش مستقبلي وإن رائحة الدم في معسكر محمد القاسم وعفونة الجثة لا تغطيها أصواتهم وزعيقهم الذي يشبه صراخ الجنود وأهازيجهم ساعة قتلوا العقيد جلال...

مع كل ذلك بقيت طول ليلة القتل ثم اليوم التالي في المعسكر أتابع التحقيق مع الجنود المتفرجين على الحدث، هناك من ذكر لي أن العقيد وجد جنوداً في بجامات النوم يلعبون الكرة الطائرة فقصدهم واطلق كلمات بذيئة.. كان يطعن في الأعراض.. وهناك من قال لي إن العقيد شكَّ في أن بعض الجنود لم يؤدوا التحية له وفق الأصول العسكرية فسبّهم وسب الضبَّاط الذين دربوهم وترحم على ايام العهد الملكيّ.. وغالى آخرون فذكروا أنّه انتقص من الزعيم ووصفه بصاحب الأذنين، وهناك من ادَّعى أن العقيد تعمد الإساءة إلى سريتي انا شخصيا كون معظم من فيها محسوبين إما على الزعيم أو الشيوعيين إلى درجة أنه افتعل أمرا ليزج السرية في عقوبة جماعية حيث أمرهم وهو يشتم

ويسب ويمدح نوري السعيد وعهده أن يغطسوا في المستنقع القريب..

ضاع القاتل...

واختلطت الأمور منذ اللحظات الأولى...

لم يوجه أحدٌ إليَّ تهمة القتل لكني كنت بنظر الآخرين أحرض على قتل العقيد جلال لاسيما أني قطعت عليه حديثه قبل يوم من الحادث بنبرة أقرب إلى التهديد...

وهكذا تلبستني القضية....

فبُعَثَ بي مسجونا طليقا إلى مقر الفرقة الأولى...

وفي الديوانية عشت الايام الأولى مع الضباط.. وقابلت الزعيم حميد الحصونة ذلك الرجل المعروف للقاصي والداني بانتمائه القومي الناصري... في الجلسة الأولى راح يتطلع إلى تقرير عنّي قادم من المعسكر.. أوراق ليست بقليلة الحجم.. قلّب بعض الصفحات والتفت إليّ:

هل كان بينك والمرحوم العقيد جلال عداء ما؟

كلا أبدا "واضفت" كيف يكون هناك عداء وأنا حديث العهد بالمعسكر ولست على احتكاك معه داخل المعسكر أو خارجه ثم أن رتبتي لا تسمح لي بالاحتكاك الدائم به!

ولا اختلاف سياسي!

جائز ذلك!

ماذا تقصد بكلمة جائز؟

أنا أحب الزعيم ومن أنصاره وأظن العقيد جلال من الجماعة المحسوبة على القوميين فأنا أحب الزعيم وهو يكرهه.

كيف عرفت أنه يكرهه؟

كان ينتقد الزعيم بطريقة ما أحيانا يسخر منه ويتهكم!

ماهو دليلك؟

ذات يوم نهق حمار قرب المعسكر فقال العقيد لم لايسكت صاحب الأذنين الطويلتين!

مشاهد كثيرة.. والنقيب آمر السرية الثانية حسين الشيوعي يعقب على لمز العقيد بحق الزعيم لا أبدا هذا الحمار يعلن دقت ساعة العمل الثوري[٥]. لا أشمت بالعقيد لكني لم أتذكر وأنا أقف على جثته سخريته، الآن في التحقيق أستشهد بها:

هكذا تستنتج من دون روية أنه يقصد الزعيم!

قلت مستريبا بملامحه التي احتقنت وحدقة عينه الآخذة بالاتساع:

---

٥ - أغنية حماسية شهيرة كانت شائعة أيام حكم عبد الناصر.

الضباط القوميون والبعثيون لاسيرة لهم سوى الانتقاص بطريقة فجة من الزعيم وبقية قادة الثورة!

فكوَّر قبضته ومسح أرنبة أنفه قائلا بامتعاض:

نحن الآن أمام جريمة قتل!

تساءلت مندهشا: سيدي ما علاقتي أنا بالأمر..الجميع يعرف أني كنت بمهمة خارج المعسكر ساعة وقوع الجريمة.. أقسم بشرفي العسكري أني لو كنت حاضرا لدفعت عنه الموت بنفسي.

ملامح حصونه تتغير، فمال إلى الرقة، بسط يده إليّ، وقال:

اجلس!

لا يصح ياسيدي!

أقول لك اجلس تفضل. خذ راحتك!

لحظة صمت سادت. التفت إلى التقرير ثم رفع رأسه نحوي:

اعتقد الآن كفى.. سأتركك تتذكر تفاصيل مارأيت بدقة متناهية، وسوف أدعوك لجلسة أخرى. عصر اليوم التالي دعاني من جديد، أشار إليّ أن أجلس، فألح وأظهر طيبة متناهية وتوددا ولطفا... في البدء.. لاح لي أنه حمل وديع يبحث عن الحقيقة، قال وقد وسعت ابتسامته حتى كادت

تأكل وجهه:

هـذا التقريـر يمكـن أن يكـون لاشـيء.. سـوف يوجـه المكتوب فيه إلى أناس آخرين.. جنودا وضباطا أنت لست منهم، وفي حال تَعثّر الأمور فليس أمامي من حل سوى أن أرفعه إلى المحكمة العليا.

إذاً العقيد شمس عبد الله ومحكمة تدعى عليا شكلتها الدولة لتحاكم نفسها وأنصارها وتمنح أعداءها صكوك براءة.. محكمة رئيسها قومي وأعضاؤها بعثيون وقوميون، كلام قائد الفرقة واضح غامض وأنا معه على حذر لحد الآن:

سيدي إذا كنتم على قناعة تامة أني لست القاتل فلم التحقيق معي؟

هناك في بعض الأحداث من لم يمارس فعل القتل لكنه يدفع له ثم إنك تعرف كثيرا من الملابسات أليس كذلك؟

نعم أعرف عموميات كثيرة موقفي واضح منها.. قتل العقيد جريمة لاتغتفر عمل همجي مقزِّز قد يكون من أسبابه أنه جلد مراسله السابق قبل الثورة يوم كان برتبة أقل من عقيد أما سلوكه بعد ١٤ تموز فإنه لم يتبدل بقي فظا وزاد الوضع سوءا أنه بدأ ينتقد الزعيم ومحكمة الثورة، ويبجل عبد الناصر وفي بعض المواقف يمدح الوضع الملكي على أن هناك حدودا بين المراتب والضباط

لايتجاوزها أحد لكن كل ما فعله وقاله لايسوغ قتله قط.

ها يعني أنك تقر أن هناك من يكرهه ومن حرض على قتله من الجنود والضباط!

بلا شك وإلا لما كانوا قتلوه.

حسنا إذاً يمكنك أن تدلي باسماء هؤلاء...

هممت أن أقاطعه فأشار بحركة زاجرة من يده أنْ أَصْمِتْ... تغيرت في لحظات ملامح الوجه البشوش والحمل الوديع الأليف انقلب إلى نمر شرس وتمساح كاسر يفغر فاه متحفزاً لابتلاع كل ما أمامه.. الطيبة.. الهدوء.. الرزانة.. حسن النية.. لطف التعامل.. فجأة انشطرت قسماته إلى غضب مستعر محموم واحمرت أوداجه فهدر كما لو كان يخطب أو يلقي بيانا في أحد الحشود:

نحن نصلي ونصوم.. عبد السلام عارف من قرأ بيان الثورة مؤمن.. من يقبل منا أن تتطوع أخته وابنته في المقاومةالشعبية[٦] إنهن يحبلن الآن في الخنادق يمارسن الجنس كيف شئن.. هل فقدنا الغيرة؟نحن بلد عشائري

---

٦ - المقاومة الشعبية اصطلاح يخص اليساريين الذين شكلوا بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ وحدات من الشباب، والفتيات تتدرب في معسكرات لحماية الثورة وكان معظم أفراد المقاومة الشعبية من الشيوعيين واليساريين.

عربي نؤمن بالإسلام ماعلاقتنا بالروس والصين وكوبا.. فساد وجنس وفوضى هؤلاء فوضويون.. وباء.. طاعون.. مرض خطير فوق كل هذا انتقلت العدوى إلى الجيش لن يحترم جندي ضابطا.. بعد حادث قتل المرحوم جلال سوف يتطاول الأدنى على الأرفع، ويصبح مصرع العقيد مثلا يضربه الجندي امام الضابط ملوحا بالقتل والسحل.

توقف يلتقط أنفاسه، وخطا إلى دكة خلفه حيث أدار من وعاء شفاف بعض الماء فشفَّه دفعةً واحدة، فاغتنمت فرصة للحديث:

أنا معك سيدي وأنت تعرفني لست شيوعيا!

لهذا لا أريد للشيوعيين أن يركبوك كما يحاولون أن يركبوا الزعيم الآن..

استفزتني عبارته فكظمت غيظي، وقلت:

ما ذا علي أن افعل؟

نصيحتي إليك أن تبريء ذمتك وتخبرنا بأسماء الجنود الذين قتلوا المرحوم والضباط المحرضين على عملية القتل.

يريدني مخبرا وأنا أريد أن اكون ضابطا حقا.. ابتزاز.. مساومة.. وشاية بزملائي الضباط.. كيف يحق لي أن أنطق باسماء جنود سمعتهم خلال الليالي في اثناء تجوالي عند خفاراتي يتحدثون عن قتل.. هل أكون من غير شرف

عسكري حين أنقل اسم ضابط تمنى ذات يوم أن يوجه مسدسه نحو العقيد.. أو أنقل سخافات جنود نسخوها من السينما فطبعوها فيمابينهم على ضباط يكرهونهم..هل أقول إنهم توعدوا ضابطا بعثيا ظنوا أن خالته زوجة الوصي أم أكتب عن فريد القومي الذي جعلوه ابن آمرهم النقيب شوقي ولن يُقبل أيّ عذرٍ منه إلا أن يدع التمثيل جانبا ويطيع أباه؟ مهزلة.. عبث يختلط بجرم شنيعٍ ثم مَنْ هؤلاء الملثمون الذين سحلوا الجثة وزعقوا ، فذابوا.. تلاشوا.. تبخروا.. لأحمل وحدي جريرتهم؟ أنا ضابط لست مخبرا ياسيدي:

سيدي كل ما أعرفه أني حين وصلت رأيت جنودا ..

قاطعني بملل:

أعرف والله اعرف مكتوب هذا في التقرير وانا أصدقه!

أنا ضابط ألتزم بواجبي وعليّ أن أدون مارأيته كما هو لا كما يعتقد الآخرون!

لكنك لم تذكر أن الملازم ضابط السرية الثانية معك في الفوج شيوعي يكره العقيد ومن المحتمل أن يكون حرض جنوده على القتل.. ولم تذكر أن النقيب آمر سرية الفوج شيوعي يساري.. لا أدري مالفرق؟ شيوعية يسار البول أخو الخراء كان دائما يتذمر من العقيد ويلعنه علنا أمام الفوج.. ولم تشر إلى أن الضباط حاملي الرتب من رتبة مقدم

إلى نقيب فلان وفلان وفلان يتحدثون عن العقيد جلال وكأنه ينسق مع عبد السلام لقلب نظام الحكم وإن الزعيم لو يمنحهم صلاحيات لانتقموا منه!

لم اسمع ذلك من أيِّ ضابط!

قلت إن ما في التقرير يمكن أن يوجه إلى غيرك فلا تجعل هؤلاء الفوضويين يتخذونك مطية لهم!

تساءلت باستنكار:

هل هذا منطق قائد فرقة مع ملازم؟

عاد بوجهه الدم إلى الغليان ، وزعق:

لست ضعيفا حين كنت لينا معك وما احترامي الذي ابديته إلا للنجمتين اللتين تحملهما... الآن اتضحت الواقعة أنت تتستر على من هددوا العقيد من الضباط وعلى جنود قتلوه ومثلوا بجثته.. لا حديث لك معي بل مع المحكمة العليا..

عندئذ خرجت عن طوري...

لم آبه لتهديداته...

لتكن المحكمة العليا وليكن مايكون، جذبت التقرير وبصقت عليه، ردة فعلي تلك تحولت بعدئذٍ على أفواه الناس بصيغة اخرى: بالضبط ذكروا أني خلعت حذائي ورميته بوجه قائد الفرقة الأولى...

الشارع يتناقل أخباري على هواه...

خرجت من غرفة القائد وأنا على يقين تام أن المحكمة العليا ستحاول إدانتي مهما بذلت من جهد، مع ذلك فكرت بتكليف محام مشهور، فلا أحد يتصور أن هناك رئيس محكمة يقلب الحقائق مثل شمس.. محكمة كاريكاتير.. لن يكون حظي أفضل ممن يعلق صورة الزعيم على واجهة محلّه فيدان بشتمه الثورة، ولا أحسن ممن هتفوا للثورة فأدانهم شمس بإساءتهم للزعيم....

فعلا كانت الحكومة الجديدة تنتحر

وكنت كفراشة تقتحم اللهيب عنوة فأنتحر معها باختياري...

سأذهب إلى تلك المهزلة وإن ساورني شكّ، فقد شغلني التفكير بتكليف محام عني أعرف كفاءته.. من طبعي ألا أيأس.. أشعر أن الحق معي وأني لست مذنبا.. سألت أحد الضباط أن يبعث في اليوم التالي جنديا من الفرقة إلى أهلي فيحضر أبي أو أخي ليستلم ما معي من نقود غير أن أبي الشيخ فقد صبره فبعث أخي هشام إليّ..

لمع بريق في خيالي.. تفاؤل..

بعض الفرح، فعانقت أخي، وبعض الغم ينزاح عن صدري:

قبل يد الشيخ وقل له إن ابنك لم يقتل أحدا ولن يقتل بريئا، ولو كنت حاضرا تلك الساعة لمنعت الجريمة من أن تحدث بأي ثمن كان!

راح ينظر إليّ ساهما شاردا، فمددت إليه يدي بالأمانة وأنا على ثقة أنه، على الرغم من صغر سنه، سيوصلها إلى بغداد بسلام!!

الجزء الثاني

سفر دائم

استهلال

حركة القطار وارتجاج العربات وطول الطريق أضفى على الوجوه مسحة قاتمة من الحزن والكآبة والصمت، حقائب خلفنا وكواران كبيران وثالث في المقدمة، وصندوق عند الممر.. أشياء باردة ساكنة كوجوه أصحابها حتى ماجد الصغير لم أسمع له صوتا طول تلك الرحلة المملة..كانت أمي تجلس في المقدمة يمين العربة بجانبها محمد يقابلها كرسيّا بتول وزوجة هاني التي وضعت ابنها في حجرها وطوقته بذراعيها.. خلفهما تجاور عباس وكامل وعن الشمال أبي ونعمان في حين تخذت مكاني خلفهما.كادت العربة تخلو من المسافرين ماعدا رجلا كهلا وابنه هبطا في محطة الناصرية وثمة في الصف الأخير رجل وزوجته وابناه الشابان، وثلاثة جنود ثرثروا ساعة وصمتوا ولعل بعضهم انزعج من حمولتنا والكورين اللذين

حشرناهما على جانب الممر لكني على الرغم من السكون والظلال والصمت كنت أغادر مقعدي لحظات فأتطلع في وجوه إخوتي.. هاهو الصمت يحجب عني، يانعمان، أنك سوف يُزَجّ بك في السجن ولماتزل مراهقا فتكره العسكرية..تصبح معلما ثم محاميا... وهي الرحلة الصامتة التي جعلت منك يا عباس مستشارا في إيرلندا ولم تفكر بالعودة للعراق..أما المدرس كامل فسيموت في بغداد وأنت يامحمد ياخبير النفط القدير لِمَ قتلتك عصابة بعد سقوط بغداد؟لكنكِ يا بتول أنت تخفين حزنك تَتَملَّككِ عواطف جامحة لنا فعشتِ عليلة من يوم اعتقال هاني.. لستُ منجما لأقرأ طالعكم لكنه هو الصمت الذي أفصح ولم يفصح كأن وجومنا كان أكبر سعة من ضجة القطار الصاعد إلى بغداد!

١

بغداد ثانية

وهاهي بغداد تسعى إلينا ثانية على مضض...

يمكن أنها لاحت لي بلون آخر...

في البصرة كنا قد بنينا- قبل مصرع العقيد- أحلاما كثيرة واسعة الأطراف كبرت مع الأيام حتى حدث الزلزال الذي لم يكن في الحسبان، ويبدو أن الزمن أبى إلا أن يكاشفنا ببؤسه وقسوته يوم" حكمت محكمة أمن الدولة المشهورة على أخي هاني أواخر عام ١٩٥٩ بالسجن سبع سنوات والطرد من الجيش بتهمة اغتيال أحد الضباط القوميين"[٧] .. لابدّ أن يكون هناك ضحية ما وفق مقاييس المحكمة وإن "لم يكن لهاني أيّ دور في عملية الاغتيال كما حدثني مرات وهو لا يخفي عني أي شيء"..

وهكذا في ساعات معدودة خرجنا من دور الضباط..

أصبحنا مطرودين..

في العراء صورة للعابرين...

---

٧ - العبارات التي بين أقواس من مذكرات الدكتور "هشام نجم".

مشردين لامأوى...

البصرة خرجت من أيدينا فأيّ مكان يؤوينا..قبل الحادث الأخير كانت أربع نجمات على كتفي أخي تشدنا إلى البصرة، وإلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم.. وشط العرب يجري بنا نحو أحلام ملونة جميلة، وإلى ألف مكان ومكان.. حَسِبنا أن نرى مع هاني المدن العراقية كلّها.. فماذا بعد الآن غير بغداد ولا مدينة أخرى يمكن أن نأوي إليها على الرغم من أنها لما تزل تئن من نزيف الدم!

أو تلوح لعينيّ بلون آخر!!

بطعم آخر وإن فارقتها بضعة شهور...

كان هو القطار الذي تسلقت سطحه قبل أن أوصل المبلغ إلى المحامي.. هذه المرّة يكاد يكون فارغا مثل جذع نخلة متهاوٍ منخور.. لعله غريب عني وقريب مني..فلم أشعر برجات عرباته وحشرجته ووطأة الليل الثقيل وشعوري بخدر في رجليَّ من طول الجلوس.. مغامرة حسدت نفسي عليها لأتلهى بها هاربا من صمت الرحلة.. فلم نفكر بالحديث مع بعضنا أو نلتفت إلى من يصعد وينزل في المحطات الرئيسية ومن يلقي على أمتعتنا المتناثرة نظرات غريبة كأن هدفنا الوحيد أن نقابل بغداد بالصمت..

لقد وددت حقا أن يظل القطار يسير بنا ونحن صامتون

إلى غير مستقر فنبقى داخله إلى ماشاء الله..حتى إذا وصل بغداد تمعنت في الوجوه الصامتة فوجدت أن عائلة هاني وعائلتنا أصبحتا مثل توأم قُذِف به من رحم أمه إلى الخارج فراح يصرخ حالما اصطدم بعالم آخر جديد عليه ثم " لنجد أنفسنا في محطة قطار بغداد أكواما من البشر وأمتعتهم على رصيف قريب من المحطة وقد انهمر علينا المطر، ولسع أجسادنا البرد "في حين خرج الوالد عن صمته الذي طال من البصرة إلى بغداد، فقال وهو يوجه الكلام إلى الجميع أما عيناه فكانتا تنصبان عليّ في لغة تعني الكثير:

كامل، محمد.. إسمعا لاتفارقا ماجد ولو لحظة نعمان التفت لأمك وأخواتك.. عباس لايغادرنَّ أيٌّ منكم رصيف المحطة مهما حدث.. هشام التفت للجميع أنت معنيٌّ بهم أنا ذاهب لأبحث عن دار استأجرها لكم.

وسألت بتول وهي تتململ بين أمي وأم بدري:

ألا نذهب إلى حي العامل عند بيت أختي..

سأحاول أن أجد دارا للإيجار فإن لم يكن نذهب إلى هناك..

غادر أبي إلى حيث لا نعرف.. ساعة مرت أو أكثر بين لسعات البرد والمطر، هاهو ماجد يضج بالبكاء بين حين وآخر كما لو أن صرير القطار ورجات العربة الليلة البارحة

أوحت إليه أنه في مهدٍ يتماوج به فسكن صوته حتى هبطنا إلى الرصيف، حقائب وثلاثة أكوار.. صندوق..... عائلة تتكدس عند الرصيف يلوح البؤس والتعب على وجوه أفرادها.. دهشة.. نظرات غريبة.. وخيبة أمل تنمّ عنها نظراتنا، وبدا التعب بين عيني نعمان الذي حاول أن يتناسى فداعب ابن أخيه، كانت أختي تلتصق بأمي التي ما انفكت تسعل.. عباس يلوذ بالصمت..سكون غير مألوف على وجهي محمد وكامل اللذين جلسا جنب ماجد وأمه.. وأنا على بعد خطوات من الجميع أتطلع تارة إليهم وتارة في العابرين الذين أثار وجودنا وأشياؤنا فضولهم.. صورة لعائلة لايطالع أحد مثلها.. بغداد التي ألفناها بدت غريبة عنا...تلك المدينة التي شهدت ولادتي وطفولتي أدركتها في حال بؤس وسورة دم.. حزن وصخب.. داميةً تنظر إلينا باستغراب.. كأن الدم الذي انفجر من العقيد المغدور وطالتنا شظاياه في البصرة مازال يلاحقنا نحن الأبرياء.. بالأمس حدثت جريمة فساح دم الملك وعائلته ووجدنا الأمر يحدث في البصرة التي طردتنا.. نحن الآن في الشارع.. لامأوى لنا فمن كان يصدق أننا عشنا يوم أمس.. أمس فقط في بيت يشبه قصور الملوك..

سعة وراحة.. ونظام ولا مأوى لنا سوى الشارع:

هل أنت جائع؟

سألت أخي الأصغر محمد:

فمط شفتيه متذمرا وأجاب مكابرا:

لننتظر أبي.

وقالت أمي:

عندكم لفات في هذه الحقيبة تكفيكم للفطور والغداء.

فردَّت أختي متضايقة:

هل نأكل في الشارع مثل الشحاذين أم كالغجر أنتم مجانين؟!

ثمّ عاد أبي ولمّا يطلّ الظهر، فعرفنا أنه استأجر بيتا قريبا من المحطة، وعلمت أنها تدعى حي " الرحمانيّة" لم أكن رأيت الحارة من قبل غير أني قبلت على مضض بواقع جديد فرض نفسه عليّ. مكان جديد.. جيران نجهل من هم.. صورة أخرى أستقبلها غير صورة البصرة.. هناك حيث كنا نسكن في دور الضباط كانت علاقاتي محدودة معظم أصدقائي ألتقيهم في المدرسة وأبي يذهب خلال الجمع إلى جامع الأمير في العشار للصلاة.. أما هنا فالمحلة مفتوحة إلى أبعد حد..فلا بد أن يعرف أهل الحارة بمرور الوقت أننا عائلة ضابط محكوم بتهمة قتل.. فيا ترى من هم أصدقاؤنا ومن هم أعداؤنا من لنا في هذا البحر المتلاطم من النزاع

والصراع.

كاد كل شيء يسير على مايرام إذ تبدو المحلة التي عشنا فيها بغالبيتها من أنصار الزعيم واليسار، وكانت هناك علاقة ود تربطنا بالجيران، ففي ليلة قدومنا إلى البيت الجديد استدعى والدي أختنا الكبرى هناء التي قدمت من "البيّاع"حاول والدي ألا يقلقها وثمة حينذاك لم يكن هاتف أو وسيلة اتصال بين بيتنا في دور الضباط بالبصرة وحيث تسكن أختي..كل ما في الأمر أن والدي ذلك العسكري المتقاعد الرجل الطيب الهادئ استدعى اختي وطمأننا أنه لن يتركنا في هذا البيت الصغير فقد جمع بعضا من مال قد ينفع في شراء بيت أكثر سعة في المستقبل، وابتسم وهو يعقب:

هذا إذا رغبت أختكم أن تنزل لكم عن بعض حصتها!

بقي زوجها صامتا وعلى شفتيه ابتسامة رضا واندفعت "هناء":

ذمتك بريئة يا أبي وإذا نقص المال عندكم فيمكن أن نكمله نحن!

تصورت بعد هذا اللقاء تلك الليلة أن الأمور يمكن أن تسير وفق ما أرغبه على الرغم من النكسة التي تعرضت لها العائلة بطرد هاني من الجيش وسجنه. فكرت أن أدرس

وأعمل معنى ذلك أنّ عليّ أن أوطّد نفسي للعمل نهارا.. والدوام في مدرسة مسائية.. استعرضت بذهني أعمالا يحترفها شباب في سنّي.. تذكرت البصرة ولوحة السينما.. سينما الرشيد.. والوطني.. هناك لوحة يحملها صبيان عن اليمين والشمال في واجهتها بوستر لبطل الفلم والبطلة.. هذا الأسبوع.. فرقة الخيالة.. هرقل الجبار.. فريد شوقي.. سينما الرشيد .. جزيرة الوحوش.. إسماعيل ياسين في الطيران لاتجعل الفرصة تفوتك هل ألبس مثل تومان[٨] الأسود بدلة ذات ألون وأتبختر في سوق الهنود[٩] أمام اللوحة أم أتوقف مثله بين حين وآخر لأعزف المزمار بأنفي؟ لولا "تومان" لما غيرت اتجاهي ذات جمعة إذ أعرضت عن أن أشتري كتابا فتركت سوق البصرة القديم، وذهبت إلى السينما لأرى "لص بغداد".. قد أكون أحد الصبيّين اللذين يحملان اللوحة

---

٨ - تومان شخصية بصرية مرحة من أصول إفريقية كانت دور السينما تؤجره ليسير أمام لوحات العرض يعلن عن اسم الفلم الجديد وأحيانا يقف ويعزف بأنفه على المزمار، فيدفع سلوكه هذا الزبائن لابتياع التذاكر.

٩ - سوق شعبي في البصرة أشبه بسوق السراي في بغداد يقال أنه حمل اسم الهنود الذي كانوا الباعة فيه بعد احتلال العراق عام ١٩١٧ غير أن باعته في الستينيات هم من أهل البصرة، وكان تومان يستعرض فيه.

أمـام المنادي..صـوتي واضـح قـويّ أسـتطيع أن أغـامر بـه..لن يخونني فقد جربته في إلقاء المحفوظات والإنشاء.. لا أخجل أن أنـادي.. لا أجـد إحراجـا إلا في أن ألـبس بدلـة مزركشـة اللون، وإذا صعب الحال عليّ في عمل الإشهار للسينما فربما أحاول أن أبيع ورق اليانصيب أو أسجل خـلال عطلة الصيف ضمن شباب يعملون مع وزارة الصحة أرش بعضاً من بيوتات الحـارات القديمـة بمسـحوق أل "دي دي تـي"، أمـا الآن فليس أمامي أي خيار سوى أن أذهـب لألتحق في المدرسـة ثم أسـعى للشغل، ولم أتردد بل تقدمت من الوالد وسألته بخشوع:

أبي هل تسمح لي أن أعمل؟

فقال مندهشا:

والمدرسة؟

إذا حصـلت علـى عمـل ثابـت فـإني أنتقـل إلى مدرسـة مسائيّة.

وماذا تنوي أن تعمل.

أيّ شغل كاتب.. فراش.. في السينما.. بائع يانصيب.

مازال الشيخ صامتا واسترسلت متحمسا:

تسـتطيع أن تحـتفظ بمـا عنـدك ومايزيـد مـن راتبـك التقاعدي لشراء بيت وتعتمد على ما أكسبه.

فرد وهو يهز رأسه:

لاتَبْنِ آمالا عريضة من الآن.

سأحاول كل مافي الأمر.

المهم دروسك.. لاتضيع دروسك. أريدك تدرس وتنجح.

لاتخش .. سأنجح ولعلني أجد شغلاً ذات يوم!

٢

مدرسة الكرخ

ربما هي المصادفة وحدها ألقتك في طريقي أيتها المدرسة البعيدة العنيدة الحاقدة!

لعلني أتخيلك وأنا في هذه السن مثل ضفدع غاضب مسموم فإن زاغ الخيال بي بعيداً وطاش، رأيتك أفعى تحدّق بي عن قرب وإن لم يكن يبعدني عنها سوى عشرة أميال.. لا أدعي أنها المصادفة لكن هي الحقيقة فحالما سكنا في "الرحمانية" سجلت في مدرسة الكرخ، عشرة أميال عن بيتنا، من المحال أن أستقل الحافلة أو أيّاً من سيارات الركاب.. خمسة فلوس.. عشرة.. يوميا تصبح خلال شهر أكثر من ربع دينار.. كنت أستخدم في تلك الرحلة اليومية الطويلة دراجتي القديمة محاولا أن أجتاز الطرق والشوارع الضيقة.. السيدية.. محلات الباعة.. تقاطع الطرق.. الباعة المتجولين.. باعة الأرصفة.. إعلانات الشركات.. عناوين المحلات.. ملامح الطريق حفظتها تماما خلال الأسبوع الأول من دوامي في المدرسة.. ولا شيء يطرد الضجر عني سوى أن

أتخيل بعدئذٍ في كلِّ رحلة مشهد مدرسة المعقل والهتاف باسمي.. هذا المشهد الذي بقي عالقا في ذهني ليطرد الضجر عنّي.. أقتل الوقت حتّى أصل الجعيفر، وفي المدرسة وقع بصري على وجوه جديدة..

مدرسون جدد..

تلاميذ مختلفون..

نظرات غريبة تنصبّ على شخص آخر كأنه قادم من فضاء بعيد.. طير غريب هبط فجأة من السماء وسط طيور أخرى راحت تنظر إليه بعيون مريبة.. لست من الجعيفر.. منطقة لاتشبه المعقل تماما، ولا الكاظم.. مزاج وهوى مغايران حتى خيل إليّ أني في بلد آخر.. طالب جديد جاء من مكان بعيدٍ جدٍّ قَصيٍّ.. ليلة كاملة قضاها في القطار.. ووقف في درس الاجتماعيات يردّ على سؤال المدرس فيعيد الجواب مع تساؤل أيّ مدرس يدخل الصف فيقع بصره عليّ:

من أيما مدرسة قدمت؟

المعقل!

يجيب طالب يدعى عبود مانع وهو أول طالب حاول التقرب إلي وجسَّ نبضي أول يوم داومت فيه، مندفع لكنه هادىء وادع:

من البصرة.

لم أسألك أنت!

ويعقب مدرس الرياضيات المبهم الملامح الذي عرفت فيما بعد أنه قومي الاتجاه:

أنت بصري؟

لا كنّا نسكن هناك!

بعض المدرسين ينظرون إليّ نظرات ودٍّ أو نظراتٍ من دون ملامح. عبود الهادئ كاد يكون صديقي، الطلاب بعد الأسبوع الأول نظروا إليّ باستغراب ثم تمادوا بنظرات شرزٍ وغضبٍ لأكتشف فيما بعد أن غالبية المنطقة تكره الزعيم وتحب جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف.الجعيفر بلد آخر من كوكب ثان.. يتحدثون مع بعضهم كأنني في عزلة، فهل شذّ عنهم عبود مانع الهادئ الذي يغلب عليه الاندفاع لكنّ مراقب الصف الشاب الطويل قابلني بنفور،وعبد المجيد الطالب المفتول العضلات الذي يتباهى أنه يلعب الحديد في النادي أخذ يسخر من شكلي وطريقتي في الكلام،أما مازاد الوضع سوءا فكان يوم أن وقف مدرس الجغرافية مصطفى عبد الرحمن القومي الذي سألني كأنه يتعمد أن أعيد اسمي:

قلت ماسمك؟

هشام نجم!

فسكت برهة وقال عبود:

جاء من البصرة.

فزجره المدرس والتفت إليّ:

أنت من البصرة.

كلا كنّا في بغداد ثم انتقلنا إلى البصرة .

وفاجأني بسؤال غريب:

هل هناك علاقة تربطك بالضابط هاني نجم؟

كدت.. ماعساني أن أقول.. أتلعثم..لا أدري.. جيراننا.. المنطقة التي نسكنها يعرفون أم لا.. قصة هاني طويلة عريضة لانتطرق إليها مع أي أحد لكننا لا ننكر علاقتنا به حين يسألنا شخص. حتى وإن عشنا إلى زمن يبرأ فيه الأخ من أخيه والأب ينكر ابنه فنحن لا ننكرك يا هاني.قلت:

نعم. إنه أخي.

تغيرت ملامح المدرس.. تجهّم وجهه.. هز رأسه ونظر إليّ نظرة ذات دلالة.. أقرب إلى النفور منها إلى الوعيد.. كأنّي نسيت أني في منطقة قومية وأن الصحف زادت النار لهبا حين نشرت وماتزال - حتى بعد المحاكمة - تنشر وتدبِّج المقالات عن العقيد جلال فتؤيد صحيفة قتله وتستنكر الأخرى الجريمة.. وللناس آذان وعيون.. فيظل اسم هاني حاضرا في الأذهان!

ها أنا واقع في ورطة..

منطقة تكرهني تعدّني أخ قاتل لواحد من أبنائهم..

وسواء كان العقيد جلال من أهل الجعيفر أم من أيٍّ مكانٍ آخر فأنا مطلوب لثأر لم اقترفه بل لم تكن الجريمة من فعل أيّ واحد منّا نحن آل نجم،دم جرى في البصرة اقترفته عدة أيدٍ ذات يوم لكنّ أخي دفع ضريبته سجنا وفصلا من الوظيفة ، وأنا أتحمل وزره كل يوم..من المضحك المبكي أن تجد شيخا متقاعدا في رحيل دائم يلفّ الأيام بحثا عن ابنه السجين، والسجون تتغير كل شهر بل كل أسبوع.. رحلة عذاب الشيخ تبدأ من سجن نقرة السلمان إلى سجن رقم (١) في معسكر الرشيد ، سجن الحلة وكنا لا نرى هاني إلا إذا انتقل إلى بغداد في سجن رقم (١) بمعسكر الرشيد ، ووالدتي تسأل:

لماذا هكذا ينقلونهم ياحاج!

علمي علمك!

ومحمد الأصغر المدلل المرح الذي اختفت بسمته ومرحه وتشبعت طفولته بالحزن يطرح كل مرّة سؤاله البريء:

أبي، هاني بريء فلِمَ يلقونه في السجن؟

وهل يقدر أن يجيب بكلام آخر.. لايدري.. لكني أدري أن بعض النَوَرَ يتعبون من الترحال فيستقرون في مكان.. أمي

تقول الله على الظالم.... عائلة مزّقها الحادث.. سَلَبَ فَرَحَهَا.. لتظل والدتي تسعل من الحنين والحسرة.. وزوجة أخي صامتة تحرق نفسها..أبي لايقدر على العمل المؤقت وإن لبضع ساعات في اليوم أيّ عمل كان فها هو مشغول بالسفر إلى السجون خلف هاني، النقود التي معنا غرض أن نشتري بيتا قد تنفد فهل يمكن أن أسدّ للعائلة الكبيرة بعض ماتحتاجه وأظن أنني منذ أن صحبت أخي إلى البصرة شعرت بكوني رجلا أستطيع أن أملأ فراغا هائلا بعد غيابه.. اختمرت فكرة العمل بذهني وصممت على أن أسأل بعد أن أعود من المدرسة دور السينما وعيادات الأطباء، والمقاهي إن كانوا بحاجة إلى عامل...

كاد ذلك يحدث خلال الاسبوع الأول من من مباشرتي في مدرسة الكرخ لولا أن طرأ حادث قلب كل طموحاتي رأسا على عقب فأذعنتُ لعلّني أجد مخرجا آخر يوصلني إلى بر الأمان..

الثأر نفسه الذي قفز خلفي.. لحق بي... وتسلل يتعقب القطار...

العقيد جلال قُتِل ولم يعثروا على قاتله ماعدا شخصا كان بعيدا عن الحادث..

هشام نجم.. هاهو شقيق القاتل يقع في الفخ...

يمكن أن يفعل تلاميذ المدرسة مافعله الجنود هناك في الشعيبة. العين بالعين والسنّ بالسنّ. هل ترى يجعلونني أتدلى من مروحة السقف أم يخنقونني داخل المرافق الصحيّة؟.. أحس بحاجتي فلا أجرؤ على الذهاب إلى دورة المياه أو أعطش فأكظم عطشي، أفكر أن أنطّ من سياج حديقة المدرسة فأرتوي من حنفية الحديقة غير أني أخشى صرامة الفرّاش...

العيون تخيفني ونظرات الشزر والوعيد...

والوجوة الصارمة التي تقابلني ...

ولا أحد يرغب أن يكسب صداقتي..

إنها الجعيفر حيث الجوامع تدعو علنا على الزعيم، ويوسف عمر يحمّس المشاعر في الحفلات، ومجالس الأفراح باسم العروبة والإسلام، والمظاهرات التي خرجت تندد بالكفر والكفار وتهدد الشعوبيين والملحدين.. أمّا أنا فكنت هدفا سهلا...

خائن عميل مجرم قادته قدماه لتلك المدرسة...

أخ لقاتل محترف تتعقبه العشائر بثأر!

نظرات المدرسين أومعظمهم انصبت عليّ ومازالت تحمل بعض النفور لا التهديد غير أن طلاب صفنا والصفوف الآخرى أبدوا عدوانية ظاهرة ووقاحة قبيحة.. لاهمّ لذوي

هؤلاء التلاميذ إلا أن يتابعوا الصحف خلال النهار حتى إذا حلّ المساء تحلقت كلّ عائلة حول مذياع كبير في صالة البيت تتابع صوت العرب ومحطة القاهرة، وتتناقل ما يجري في محكمة بدران، فيدرك طلاب المدرسة أن ضابطا يساريا اسمه هاني نجم قتل العقيد القومي المغدور، وحين يفتحون أعينهم يجدون أنّ أخَ القاتل معهم في مدرسة الجعيفر...

تلميذ يعيش بينهم...

صيد ثمين بلا شكّ قادته قدماه إلى حتفه!

فما أوسع الفرق بين نظرة مدرسة المعقل إليَّ ونظرات تلاميذ مدرسة الكرخ.. هناك حيث الجنوب المتحمس للزعيم واليسار رفعني التلاميذ على الأكتاف وهتفوا باسمي جعلوني بمرتبة الزعيم وخروتشوف وكاسترو.. مشاعرهم هاجت مع هاني وتابعت أخباره خطوة خطوة.. ذلك اليوم فكرت ألا أذهب إلى البيت عقب انتهاء وقت الدراسة فأسأل أصحاب المقاهي والمحلات والأفران عما إذا كانوا يحتاجون عاملا، وفي بالي صورة مشرقة.. أتخيّل أية شغلة ما.. كنت أقف مستمتعا بدفء الشمس خلال الفرصة الكبرى.. اخترت الزاوية المنعزلة في الساحة العامة حيث يتقاطع شارعان أحدهما عريض وآخر يفضي إلى سوق الخضار.لم أقف قريبا من هدف كرة القدم كأنّي أحاول

أن أتحاشى خلال الأسابيع الأولى فضول الآخرين وجفوتهم لي وصدّهم عني. إحساس يدفعني أن أبتعد عن تلاميذ لايرتاحون لي زادني ريبة أن تلميذ صفنا الطيب عبود مانع أخذ يتنصل من الحديث معي وأظنه سلك ذلكَ مجاراة لمن معه.كنت أسأل نفسي: كيف أقضي خمس سنوات في هذه المدرسة.قد لاتدوم العزلة طويلا فغدا يتغير الوضع فيعلم التلاميذ أنهم تجنوا عليّ، وما كدت ألتفت باتجاه الهدف البعيد الموازي للمرافق الصحية حتى رأيت مراقب صفنا خالد يشير إلى مجموعة من طلاب الصف الرابع والثالث إلى مكاني. ظننت في البدء أنّهم يفكرون بالفرار من المدرسة إذ ينطوّن إلى سوق الخضرة عند الزاوية البعيدة عن الإدارة بدل المغامرة غير المضمونة من بوابة المدرسة ورقابة الفراش.. يقضون الفرصة في السوق ثم يعودون من المكان ذاته.. منظر اعتادت عليه شلّة من التلاميذ في الفرصةالكبيرة

هكذا تخيلت الأمر...

بحدود سبعة أو يزيد..

لكنهم كانوا يتقدمون نحوي.

ابتسمت، تحلقوا حولي وحاصروني بين الجدار:

خفق قلبي وقلت بشيء من القلق أختلق أيّ عذر:

أرجو ألا تكونوا قد اخترتموني حارسا للمرمى فأنا لا

أجيد كرة القدم.

ضحك تلميذ ذو سمرة داكنة، وعقب على قولي ثان ينادونه عبد القادر مستهزئا:

أيّ كرة قدم أي خراء؟

قلت وعيناي تحومان يمينا ويسارا كأني أحاول أن أجد منفذا أفلت منه:

يعني ننط من السياج إلى السوق؟

تجاهلوا سؤالي.. هزّ مراقب صفنا رأسه، واندفع التلميذ الأسمر الذي يبدو أنه كبير المجموعة:

لماذا جئت إلى مدرستنا؟

بقيت صامتاً وسأل المراقب:

أنتم من عائلة كافرة.

امتعضت وكدت أصرخ محتدا:

والدي يصلي وأمي تصلي كيف يصلي الكفرة.

وانبرى أحد التلاميذ من صف آخر:

تصلون وتقتلون ألست أخا لقاتل؟!.

شعرت بدوار..

ربما بصفرة وضعف..

رهبة وخوف..والدنيا صفراء قاتمة بعيني. وحدي أقابل شلّة لا تعرف إلا الشرّ.ياترى ماذا عليّ أن أفعل؟ النظرات

الغاضبة المتوعدة.. القبضات.. السخرية.. الوعيد.. الآن وقد لمحّوا عن هاني وجريمة القتل، في هذه اللحظة فقط، وسط سَوْرة الخوف والصدمة تلاشت فكرة الهرب من تفكيري وإن وجدت منفذا في جدارهم الذي يطوقني. لن أهرب.. ذابت الصفرة، وتلاشى القتام بعيدا عن عيني شعرت بحماس مفاجيء يجتاح بدني:

نحن لم نقتل أحدا ولا نفكر بالقتل قط.

عندئذ استفزت كلماتي الآخرين، جرأتني وأنا بينهم..دفعت الأسمر زعيم الشلة أن يتقدم نحوي .. مسك ياقة قميصي بين إبهامه وسبابته وقال:

مدرستنا مكان نظيف آمن لانسمح لأحد من السفاحين أن يوسخها وأنت إن لم تمت اليوم فالأيام طويلة هل فهمت؟!

واستدار إلى الذين معه وهو يقول: هيا لنتركه الآن ثم توجه إليَّ بالخطاب: أقسم بشرفي ودم الشهداء الذين قتلهم الزنادقة وأذناب موسكو لن يمر العام الدراسي إلا وأكون أنا عبد العظيم الماوردي أسأل عني مَنْ هو عبد العظيم الماوردي شغلتي الأساسية مطاردة جماعتكم الجبناء قبل أن يمر العام أكون قد قضيت عليك بهذه القبضة!

تنفست الصعداء حين تركوني وانصرفوا إلى دورات المياه البعيدة..بقيت وحيدا أسند ظهري إلى الجدار كأني

أستعين به على الوقوف.. الطلاب الآخرون مشغولون باللعب أو اللهو جماعات جماعات.. عبود الطيب لا أثر له..هل أتفقت شلة مراقب الصف مع بقية التلاميذ على أن يواجهوني وحدهم فلا يقترب أحد من المكان.. كنت الضحية والمحقق في الآن نفسه.. رائع جدا أن يرفعني تلاميذ لايعرفونني فيهتفوا باسم الثورة ثم أصبح مجرما وقاتلا.. لكني كنت أفكر بأسوأ احتمال ماذا لو نفذ الماوردي تهديده.. هذه آخر سنة له.. أو يكون مجرد تهديد.. أنا وحدي في منطقة تكرهني.. والصحف السوداء.. وإذاعات مصر تحرض فيجد التلاميذ ضالتهم فيّ أنا الذي مازلت في الصف الأوّل الثانوي!

راودتني شكوك في أن هؤلاء يمكن أن يخرِّبوا إحدى عجلتي الدراجة..حين دقَّ الجرس وانفضوا من حولي هرولت مسرعا إلى البوابة الرئيسة والممر الفرعي الذي يليها حيث مربط الدراجات..لو حدث شيء فما عليّ إلا أن أقود دراجتي إلى أي محل.. أهي خطة منهم لاستدراجي بعيدا عن المدرسة؟ كاد المدرسون يدخلون في الصفوف حين كنت أقف في الممر أمام المربط فأتنفس الصعداء.. مافعلوه معي جعل ذهني يشطح والفراش يستحثني عند البوابة:

ألم تسمع الجرس؟ سيدخل المدرسون الصفوف!

ها نعم نعم..

انقضى الدرس، والوقت بطيء، درس هندسة المدرس العجوز ذو الشيب يشرح نظرية جديدة... المفروض.. المنطوق البرهان، هناك علاقة مع نظرية فيثاغورس.. وكنت قبل ساعة من الاعتداء عليّ أتابع أخبار سرحدون وسرجون وحكايات مدرس التاريخ التي تثير فضولي سواء أكانت خواتيمها وفق هواي أم لا، أما حادث الفرصة فقد منعني من أن أرفع صوتي وأسأل الأستاذ.. غريب في هذه المدرسة..لم ألتفت للخلف في الصف.. كل التلاميذ يكرهونني..كنت أحث الخطى نحو الممر إلى مكان دراجتي التي لم تخني ذلك اليوم.. فارتقيتها ولم يغب عن بالي أن الشلة تتربص بي في مكان ما من الطريق وأنهم يمكن أن يفاجؤني من إحد الفروع ..

تنفست الصعداء حين وصلت حارتنا ثم وجدتني أشعر بالطمأنينة أكثر في البيت حين قابلت جارتنا "أم كمال" البقال، فأشاع وجود الضيفة مع أمي راحة ما في نفسي وأية راحة.. يبدو أن ملاطفة الآخرين ومجاملتهم لعائلتنا بعد نكبة أخي تخفف بعض الحزن عن أمي التي بدأ التعب يظهر على ملامحها.. فأشعر من تلك المجاملات أن هناك الكثيرين لايضمرون لنا سوءا ولعل هناك من يرى في هاني بطلا وبعضهم يراه ضحية لمحكمة غريبة الأطوار.. ارتحت

كثيرا لتك المجاملات سواء أكانت شفقة أم إعجابا.. المهم إن هناك من لايكرهنا إلى حدٍّ أني رحت، في غالب الأحيان، حين أقدم من المدرسة أسأل مباشرة: هل زارنا أحد من الجيران أو أسأل أمي هل زارتِ أحداً من أهل الحارة. حادث المدرسة، اليوم، جعلني أشعر بحاجة إلى تعاطف الناس المحيطين.كانت حارتنا كلها تقريبا ماعدا القليلين من محبي الزعيم.مالك البيت نفسه الحاج داوود سأل أبي إن كان في ضيق فليس هناك من ضرورة لأن يدفع إيجار البيت بل يستطيع تأجيله أي وقت يشاء.. مع ذلك أعرضت عن أن أخبر أحدا.. والدي نفسه أخفيت عنه الأمر.. مادام الشجار لم يترك أثرا في ملابسي أو وجهي فليمر بسلام..لا أريد أن أزيد العائلة قلقا.. العبرة لاتخبر أهلك حين تغلب أحدا أم يغلبك زميل في شجار.. غير أن ماحدث في اليوم التالي دفعني إلى أن أصارح أبي بالقصة كلها..كان مدرس الكيمياء الأستاذ محمد طارق القومي الاتجاه يجمع بين الهايدروجين والأوكسجين والكبريت، ويشرح عن إعداد حامض الكبريت.. ماء النار.. التيزاب.. في أوج الإصغاء طرق الباب فراش المدرسة، فأشار إليّ المدرّس أن أخرج إلى غرفة المدير...

كنت صباح اليوم ذاته انتظرت، على الرغم من برودة

الجو، خارج المدرسة أكثر من عشر دقائق متحاشيا أي استفزاز داخل الصف، وقد غاب عن ذهني كيف اتحاشى تلك العصابة في الفرص والفرصة الطويلة.. تربصت حتى أوشك الجرس على الرنين فدلفت أقود عجلتي مثل اللص من البوابة الواسعة التي شرع الفراش بتحريك مصراعها الحديدي نحو القفل، وخامرتني شكوك جديدة في أن تلك المجموعة قد تفكر بتخريب دراجتي حتى توهمت أني ربما آتي غدا بالحافلة.. وها أنا في الصف وعيناي مثبتتان على اللوحة تتابعان معادلة حامض الكبريتيك.. هل هناك شيء ما يحدث اليوم خلال الفرصة الكبرى؟ وهاهو المدير يطلبني.. لا استبعد أن شلة الأمس افترت وادعت.. هذا كبيرهم الذي أقسم أن ينتقم اشتكى علي ولا شهود عندي.. كأن التلاميذ اتفقوا على أن يبتعدوا عن المكان – ساعة الحادث- لا أحد يشهد لي أم أظنّ الأمر يتعلق بتأخُّري.. كنت أقف أمام المدير وضربات قلبي تتلاحق.. بأية حجة أقابل أبي.. لو فُصِلت لامدرسة تقبلني هاني يقبع في السجن وأنا مطرود من مدرستي.. تهدجت أنفاسي وكدت أبكي.. لم يراودني البكاء أو أطأطيء رأسي أمس وأنا أرى الشلة تحيط بي فتعربد وتهدد فأكاد التصق بالجدار من الخوف..نعم خفت غير أن البكاء شيء آخر..

المستقبل يضيع مع الطرد.. نكبة أخرى تحلّ بالعائلة..ابن سجين.. وآخر مطرود.. لحظات .. تطلع المدير فيّ بنظرة وادعة.. حنوٍ.. حنان.. إحساس جديد ينبعث من أعماقي.. تضاءل الخوف.. وإن لم يكن تلاشى تماما.. سألني بلهجة ودودة:

ها هشام أخبرني عما حدث أمس؟

لم يدر بذهني قط أن المدير يعاملني بلطف، توجست أن أرى وجها متجهما وينصب عليّ زعيق ووعيد:

ليس هناك من شيء أستاذ!

أجبت، وكدت لا أصدق نغمته الدافئة الحنون:

كيف؟ ليس هناك من شيء؟أنا أعرف الأمور جيدا..أمر خطير حدث بالأمس.لاتخفِ عني أيّ خبر!

ازداد ذهولي، الخوف والريبة لا أثر لهما أحسست أني أقف أمام صديق..كم هو زمن غريب على صبيّ في مثل سنّي أن يجد ألفة من مدير مدرسته وعنفا ووحشية ممن يجلسون معه على الرحلات

تجرأت أمامه فقلت بشيء من الشجاعة:

أستاذ أنا لا أخاف إلا الله!

بقي صامتا لحظات ثم قال:

إسمع ابني.. هناك مواقف لاينفع معها العناد.. أنا أعرف

هؤلاء.. الطلاب جميعهم لايرغبون فيك.. حياتك في خطر، ولا أريد جريمة تحدث في المدرسة.. كلّ ما أستطيع فعله أن أضمن حياتك خلال فترة بقائك هنا في هذه المدرسة حتى تجد مدرسة أخرى!

إذاً ليس بالعبث تهديد الشلة لي.. أصبحت مشروع جريمة.. واجهني المدير فأمنت وقلقت.. لا أدري هل مديرنا الأستاذ "رشيد" من المحلة نفسها أم مكانٍ آخر.. خيل إليّ أنه ذو شخصية وله نفوذ في المنطقة.. ضغط على الجرس، فقدم من غرفة المدرسين معاون الإدارة الأستاذ كامل الذي سبقه المدير بالكلام وهو يستلّ ورقة من درج مكتبه:

ابعث على أولياء أمور الطلاب الذين في هذه القائمة لنأخذ منهم تعهدا ألا يمسوا هذا الطالب حتى يجد مدرسة أخرى!

خرج المعاون فالتفت المدير إليّ ثانية وهو يواصل كلامه:

اليوم وغدا أنت في إجازة.. يومان يكفيانك كي تجد مدرسة أخرى لا تضيع الوقت.. لمّ كتبك وابحث عن مكان آخر، أية مدرسة حتى لا تضيع عليك السنة!

في البيت استغرب أبي وأمّي عودتي المبكرة من المدرسة فرحت أشرح لهما ماحدث معي الأمس فتنفست أمي الصعداء وهي تقول:

الحمد لله أن لم يحدث مكروه والله مدير ابن حلال كثّر الله خيره.

قلت في شيء من الثقة:

لا أظنّه قوميا أو بعثيا.

وراح أبي يقول: الآن لاتضيع الوقت أية مدرسة تفكر بها!

رحنا نبحث عن المناطق الآمنة وسط بغداد التي تغلي.. لا أريد أن تنفث مدرسة سمومها بوجهي ثانية.. أمي قلقة.. وأبي..لا أشك أنهما يخفيان قلقهما أمامي.. أخيرا استقر رأي الجميع على مدرسة الكاظمية،فنهضت من غير تردد أتوجه إليها لكنَّ أبي قال وهو يطمأنني:

إنتظر سأذهب معك إلى هناك!

٣

مدرسة الكاظمية

كأنها الجنة الموعودة أو أوشكت أن تكون.

تلك هي مدرسة الكاظمية التي أصرّ والدي أن يصحبني إليها حتى إذا ما وجد المدير يرفض، رجاه وتوسّل، المدرسة هادئة فقد وصلنا وقت وجود التلاميذ والمدرسين في الصفوف.. لم ألمح وجه أحد من التلاميذ إلا مجموعة اصطفت في سطرين متقابلين عند المستطيل البعيد المشرف من الفسحة الواسعةالبعيدة على غرفةٍ ذي باب معدني نصف مفتوح. أدركت أنه درس رياضة وخمنّت أن الغرفة قد تكون مشجبا للملابس.. حلم جديد بمدرسة جديدة تبدو لي أنها أكثر عطفا عليّ .. تماما مثل مدرسة المعقل

المدير موجود؟

تساءل والدي، وقال الفرّاش وهو يفتح البوابة الحديدية:

نعم الأستاذ "عادل" في الإدارة!

إحساس ما يطرد عني الخوف لمجرد سماعي الاسم.. تفاؤل.. وتبقى الهواجس؟ ماذا لورفضني الأستاذ عادل هل

أرجع فأكون بين مجموعة تضمر لي الشرّ؟ شعور بالراحة والقلق، وأمي تطلب من الله السلامة والستر.. تظن أن هؤلاء مجرمون حقا سيقتلونني.. أنا مطلوبٌ ثأرا.. أخي قاتل.. هكذا صوروه فلا أنسى أني أعيش بين موتورين.. قد يقتلونني بطريقة ما.. تدهسني سيارة.. يرمي أي شقي من أشقيائهم من على سطح دارٍ شيئاً على رأسي في أثناء مروري بدراجتي.. تتعدد أشكال الموت في ذهن أمي وأبي وتبقى صورته في ذهني ترتبط بميتة تشبهُ مصرع العقيد..فأصمم على ألا أذهب ثانية مهما يكن من أمر إلى مدرسة الكرخ .

استقبلنا المدير الأنيق ذو الوجه المدور والصلع الخفيف بترحاب ملحوظ تفاءلنا معه خيرا.. بسط يده لوالدي وبقيت واقفا أنتظر الحديث بينهما، عاد الفرّاش ليضع أمام المدير قدح شاي وآخر أمام منضدة صغيرة جنب والدي:

هل أستطيع أن أخدمك؟

قلت أستبق جواب والدي:

أروم الانتقال من مدرسة الكرخ إلى هنا؟

صمت برهة ووجّه إليّ السؤال:

من أية منطقة أنت؟

الرحمانية "قلت ذلك ولذت بالصمت، ثم بدأ والدي بالكلام": لله يخليك أستاذ لا نريد أن ينصرم العام قبل أن

يجد ابني مدرسة تؤويه.

ختم كلمته برشفة من قدح الشاي كما لو كان ريقه جفّ من رجاءٍ هو أقربُ إلى التوسّل!

هز المدير رأسه مستغربا وتساءل:

أنتم من سكنة الرحمانية؟

لا أستاذ جئنا قبل أيّام من البصرة!

والتفت إليّ ومازالت الدهشة على محياه.

وماهوالدافع للانتقال من هناك؟

فاجأني سؤاله، ولم يفاجئني.. توقعته من قبل..ماذا أقول... شخص مهدد بالقتل.. هل أكذب، لكني لا أكذب حقا:

أستاذ المدرسة بعيدة كل يوم أذهب على الدراجة ومخاطر الطريق كثيرة وهناك السيارات...

وسكتّ، وقال الوالد مؤكدا:

حالما وصلنا من البصرة نصحته أن يذهب إلى أية مدرسة لئلا تمر الأيام فتفوته كثير من الدروس..

اسمك؟

هشام نجم!

ارتسمت علامة استفهام على وجهه.. رأيت حاجبيه يتقلصان. تأمل قليلا فزادت مخاوفي، توقعته يجيب رافضا

فأجد نفسي أعود أسيرا وسط أعدائي.. أنا والوقت في سباق محموم أخشى من أن تتآكل الأيام فيضيع العام، فيذهب مستقبلي هدرا..

رفع سماعة الهاتف وأدار القرص.. اعترتني صدمة حين سمعته يتحدث مع مدير مدرسة الكرخ.. أنصتَ باهتمام..هزّ رأسه وهمهم ثم وضع السماعة، وأقبل نحو والدي:

لديك ابن أكبر منه؟

نعم ضابط في الجيش.. قال أبي عبارته وسكت، والتفت إليّ:

إذاً أنت أخو الملازم البطل هاني نجم!

أيّ انشراح سرى في جسدي.. قالها المدير كأنما ليعلن صداقته لي.. خلال لحظات شخصت في ذهني مدرسة المعقل هي نفسها طارت مع الريح لتستقر في بغداد.. أنا في دولة أخرى.. أناس آخرون.. مدرسة أخرى.. حياتي ليست في خطر.. لن يجرؤ أيّ كان على قتلي. أخذتني نشوة مفرطة حتى إني لم انتبه إلى تعقيب أبي الذي قال: والله يا أستاذ هاني مظلوم!

من حسن حظك أنك تخلصت من مدرسة الكرخ، وإلا كادت تحدث مضاعفات لولا شخصية المدير.. الرجل من المنطقة نفسها ينتسب لعائلة محترمة ليس يساريا ولا أظنه

مـن التيـار القـومي.. لكنـه رجـل حـق ولـه وزن عنـد أوليـاء الأمور، وفي المحلة.من حسن حظك أنه تدخل ليوقف التعدي عليك!

هنا تدخل والدي ليزيل أي التباس يمكـن أن يخـالط بـال مديرنا:

يا أستاذ أقسم لك أن هاني لم يكن في المعسـكر سـاعة وقوع الجريمة، ابني أعرفه،رجل حقاني لاينكر فعلا يفعله ولو كان على قطع رقبته!

كأن المدير لا يرغب في أن يكون هـاني إنسـانا عاديا أو لا يصدق أنه غير قاتل.. تلك هـي مشـكلتنا مـع الناس..هـاني قاتـل وبطـل في الوقـت نفسـه.. وأنـا في محلـة كـبيرة واسـعة.. الكاظميـة.. بلـد آخـر.. مجتمـع ثـان.. فـلا أبـدو خائفـا.. لـي حماية مطلقة من ناس يقـرؤون ويتـابعون الصـحف.. يتحـدثون عـن المهـداوي ومحكمتـه، والرجعيـة، والمندسـين في الثـورة.. يرغبـون أن يكـون هـاني قـاتلا قابعـا في السـجن يسـمونه البطـل.. ضـابط انـتقم مـن عقيـد متـآمر.. لاذلـك المـلازم الأول الـذي يـذهب إلى المعسـكر يوميـا ويعـود إلى البيـت.أحلام يبنيها آخرون في خيـالاتهم عـن شـاب لم يـروه مـن قبل..المـدير بين مصدق ومكذب يلتفت إلي:

الأستاذ محمد شرارة[١٠] مدرس اللغة العربية الآن في الدرس كان رفيق هاني في المدرسة الثانوية ويتابع أخباره في الصحف كل يوم!

ثم أشار إليّ أن أخرج فوقفت عند الباب..شيء لاأستغربه.. لعله يودّ أن يسأل أبي عن بعض أمور تخصني لايصح أن يستفهم عنها بحضوري.. حدثت نفسي، وعيناي تراقبان الطلاب المنهمكين في متابعة التمرين الرياضي من دون أن أتبين ملامحهم غير أن أصواتهم كانت تطرق أذنيّ.. سيصبحون أصدقائي.. قلت لنفسي..بعد دقائق خرج أبي..وهو يدعو للمدير فسألته ونحن في الطريق إلى البيت:

هل سألك عني؟

فأجاب وهو يتمتم بالدعاء له:

والله ابن حلال.. ألحّ عليّ إن كنت في ضائقة مادية فأجبته مستورة والحمد لله "ووضع يده على كتفي يطمأنني" يبدو أنها مدرسة تحفظك ماعليك إلا أن تجتهد وتحفظ دروسك!

وهنا في مدرسة الكاظمية جرت الأمور على خير مايرام..

---

١٠ - هو الأستاذ والكاتب المعروف محمد شرارة والد المترجمة والأستاذة الجامعية الأديبة الناقدة المرحومة حياة شرارة.

كل شيء وفق هواي..

عدت ذلك البطل الذي اكتسب رفعة وبطولة من أخيه.. كان أشد مايحزّ في نفسي أن يروا شقيقي بطلا لأنه قتل عقيدا قوميا..ولم يتقبلوا فكرة أنه بريء سجن ظلما..وقد نصحني الوالد الشيخ أن لا أدخل في أي نقاش مع أي من رفاق المدرسة.. صادقت مراقب الصف "جليل" و"عماد" ابن التاجر الثري، و"علاء" ابن الرائد في الجيش، لا أحد هنا يكره الحكومة ويبغض الزعيم، وتوطدت علاقتي بالأستاذ محمد شرارة مدرس اللغة العربية ذي الميول اليسارية..عاملني بلطف وعرفت أنّه من دفعة هاني،لا يخفي إعجابه به لا سيما بعد الحادث. كان الأستاذ شرارة يرغب في أن يلتحق بالجيش غير أن الحظ لم يحالفه.. فهو وفق قوله من طبقة متوسطة يفخر بها.. قال لنا في الصف إنهم ليسوا أغنياء لكنهم في الوقت نفسه غير معدمين.. ومن حسن حظ هاني أن والده الحاج نجم كان عسكريا تدرج في مسلك الجيش فشفع ذلك له.. يا شباب أيام العهد الملكي البائد لايقبل في الجيش إلا من ينتسب لعائلة غنية.. أو من كان أبوه في السلك العسكري.. هؤلاء القوميون والبعثيون ومن لف لفهم يحاولون أن يلووا الزمن فيعيدونا إلى الوراء.. لكن هيهات أما أخوك هاني فلم يخطيء بحق العقيد.. وأظنّ أن الزعيم

يتدخل في الوقت المناسب.. أو إذا تطلب الواجب فسنسير مظاهرات تطالب الدولة بإطلاق سراحه..

كان ماسمعته من الأستاذ محمد شرارة كافيا كي يملأني بالزهو والأمان.. وربما زادني زهوا أنه اختصني بأفضلية من دون أن يثير غيرة الطلاب بخاصة درس الإنشاء والتعبير..يروح يمتدح أسلوبي ويمنحني علامة عالية، مع ذلك، لم يغب الشغل عن بالي، بدأت أشعر بقلق وكادت الأيام تمرّ عبثا.. لا شغل، ولاضمان لعائلتنا من عوادي الزمن ونحن نسكن في بيت غير بيتنا.. قد لايفكر شخص في مثل سني بهذا الأمر لكن ثقة هاني بي.. واختيار الطلاب لي في مظاهراتهم بعد مصرع العقيد وعلاقة الاستاذ شرارة الأبوية بي دفعتني أكثر نحو العمل.. ذهبت إلى دائرة الصحة وسجلت اسمي ضمن عمال الأجور اليومية علني حين يحلّ الصيف وتبدأ العطلة أحمل مضخة وأخرج أرش جدران بعض البيوت ببودر د. د. ت فأمنح أبي بعضا من النقود وأقتطع القليل أسد به متطلبات المدرسة، ذات يوم بعد أن عدت من المدرسة التهمت طعامي على عجل.. وهرعت إلى المنطقة التجارية.. شارع الجمهورية... سوق السراي ... الرشيد.. دخلت محلات ورجوت أصحابها إن كانوا بحاجة إلى عامل بعد الظهر.. التقطت أنفاسي عند الشارع الفرعيّ المقابل لدائرة

الطابو.. وفكرت أن أعبر من الشارع ذاته باتجاه شارع الجمهورية لكني توقفت عند لوحة سينما النجوم التي واجهتني حالما انعطفت نحو اليسار.. لِمَ لا أجرِّب.. لأكن صبي إعلان.. وقتها غاب عن ذهني كيف يكون لبطلٍ مشهورٍ في أذهان الناس مثل هاني أحبط انقلابا على الدولة أخٌ يعمل صبي إعلان في السينما.. لم أر في العمل عيبا.. هدفي أن أساعد العائلة حتى يتحقق حلمنا فتطلق الحكومة سراح أخي.. الأستاذ محمد شرارة.. يقول اليساريون في الجيش لن يصبروا طويلا.. سيقومون بانقلاب على القوميين عندئذ سيعرف الزعيم تضحية هاني.. لكنّ الأضواء والإعلانات داخل السينما بهرتني.. سعاد حسني على الحائط تغيب في قبلة مع كمال الشناوي.. كاري كوبر يصوب مسدسه باتجاه الباب.. ممثل أشقر ينفخ في فتحة مسدسه.. لو اشتغلت هنا لحق لي أن أشاهد جميع الأفلام من دون أن أدفع أي فلس.. قد يحتاجون في السينما بائعا للمبردات.. منظفا:

كم عمرك؟

سألني الرجل الأسمر الذي يجلس أمام خزنة حديدية محفورة في الحائط:

ثلاثة عشر عاما؟ "وأضفت قبل أن أفسح له في المجال ليسألني سؤالا آخر" أستطيع أن أنادي أمام لوحات الأفلام

قبل عرضها كما يمكن أن أبيع المبردات وأنظف الصالة بعد كل عرض!

أوّل من يعدني ممن طرقت أبوابهم.. جميع أصحاب المحلات قبله نفوا حاجتهم... مخازن ومحلات كبيرة في سوق السراي، وفي السينما خيبة وأمل، المهم أنّ هناك أمَلاً ما..في اليوم التالي.. بعد درس اللغة العربية استدعاني الأستاذ محمد شرارة إلى غرفة المدرسين.. ظننت في البدء أنه سيكلفني بكتابة موضوع إنشاء لمناسبة ما.. أو المساهمة في النشرة الجدارية التي يحررها طلاب المدرسة بإشرافه..وقفت أمامه، فسألني بتقاسيم جادّةٍ كأنني اقترفت خطأ أيّ خطأ لكن منزلتي عنده لا تدفعه إلى القسوة معي:

أين كنت عصر أمس؟

ماهذا؟ بل ماذا يعني؟ هل أكذب عليه.. يمكن أن أبالغ وأكذب في بعض الحالات فمن المحال أن أفعلها مع أستاذ لي أضفى بطولة أخي الضابط عليّ:

كنت خارج البيت؟

في السينما؟

لا أبدا!

هشام كن جريئا مثل هاني وقل الحقيقة.

نعم ذهبت إلى السينما لكن لم أشاهد الفلم.

أنا لا أمنعك لكن ليس خلال أيام المدرسة. لديك عطلة نهاية الاسبوع تستطيع أن تذهب عصر الجمعة ثم أيّ فلم هذا يجعلك تقطع كل تلك المسافة وتأتي لتراه بعد دوام المدرسة!

أستاذ أنا لم أذهب إلى السينما غرض أن أشاهد الفلم ذهبت لاسأل الإدارة فيما إذا كانوا يرغبون في توظيف صبي إعلان!

اتسعت عيناه، وتطلع إلي باستغراب:

هل أنت بحاجة إلى نقود.

قلت بشيء من الخجل:

المسألة لاتخصني.. أريد أن أساعد والدي فراتب هاني انقطع بعد الحكم عليه ووالدي عسكري متقاعد.نحن نسكن بيتا لانملكه...

قاطعني بشيء من الأسف:

هل أخبرت والدك؟

نعم، وافق أن أعمل بعد المدرسة وإن كان ولابدّ فأعمل نهارا وأواصل دراستي في مدرسة مسائيّة.

توقفت عن الكلام، وبقي صامتا. جاء مدرسون وخرجوا، ووضع الفراش الشاي أمامه ثم ترك الغرفة .. أخيرا خرج عن صمته:

دع الأمر لي وأنا أعدك أني سأجد لك عملا براتب لا بأس به خلال يوم أو يومين.

وعد.. بارقة أمل.. الأستاذ محمد شرارة لا يبالغ ولا يكذب.. كلنا نعرفه ونحبه.. بعيد عن القسوة والعنف معنا نحن الطلاب..

شكرا أستاذ هل أنصرف الآن؟

نعم لكن اسمع عليك أن تعدني إذا حصلت على العمل أن تواصل الدراسة في مدرسة مسائية لتكون مدرسا في المستقبل مثلي!

خرجت من غرفة المدرسين ولوقدرت أن أطير لطرت.. الأستاذ محمد شرارة نفسه وعدني.. كأنني قابض من خلال وعده على الدنيا بأجمعها.. سأساعد الشيخ الوالد فأسدّ فراغا تركه هاني، وسنشتري بيتا فنتخلص من ثقل الإيجار.. كدت أنسى مع هذا الوعد الذي سمعته المصيبة التي أفجعتنا ودوّامة نعيشها كلّ لحظة، لأدع الوالد على كبر سنه يغادر البيت فجرا مع الأيام يلف الألوية خلف أخي الذي ينتقل من سجن إلى سجن وكأنّه يطارد وهما ويجري خلف سراب...

ومع أنّ ثقتي كبيرة بالأستاذ شرارة إلا أنّ حلمي شابه بعض الغشاوة. قلت إنّ الأستاذ شرارة وعدني وهو صادق لا

يخلف وعده ووسوست لي فكرة طارئة: هل أنتظر شهرا.. شهرين.. لكني الآن آمل بأجور يومية.. واجهات المحلات في بغداد كلها من زجاج. ألا يرغب أصحابها بماسح..سطل وإسفنجة وبعض ماء.. فليكن حتى يجد لي الأستاذ شرارة عملا.. مرت ثلاث ساعات في البحث وحين وصلت البيت وجدت أمي واجمة ساكنة شاردة وقد تفاقم سعالها وبدت عيناها حمراوين.. كانت تبكي حالما نخرج إلى المدرسة ثم تحبس دموعها قبل أن يعود إخوتي بدقائق.. لاتكابر لكنها تتجنب أن تؤذينا.. كانت صورة هاني لاتفارق خيالها.. ولايغيب ذكره عن شفتيها.. لا أغالي إذا قلت إنها تعده إلها بنظرها.. تقسم باسمه.. طول حياتها لم تجد فيه عيبا واحدا ولخوفها عليه فإنها بعض الأيام لاتفتأ تذكّر أمّ ماجد أن تدس بعضا من حبات الملح في جيب بدلته العسكرية كي تبعد عنه الشر،ويوم سمعتْ خبر الحكم عليه اجتاحتها موجة سعال ونشيج طول الليل.. غاب عن عينيها النوم واعتكفت في غرفته تحنضن حفيدها،مع ذلك وجدتها تأنف أن تشكو..

احتدتْ بوجهي:

أين تأخرت أترغب في أن تقضي عليّ؟ أمس عدت متأخرا واليوم؟ المدرسة تنتهي الواحدة كم الساعة الآن؟ أين كنت؟

كان إخوتي في الغرفة التي ننام فيها يذاكرون دروسهم... وقبل أن أجيب اندفعت بتول:

الساعة الرابعة الآن أين كنت أمّي ظنت أحدا هاجمك فداهمتها نوبة السعال أتريد أن تقتلها!

خرج إخوتي جميعهم.. نعمان.. عباس.. كامل محمد.. وقفوا صامتين، ولو كان وضع البيت كما هي عليه أيام الفرح.. يوم نرى بريق النجوم على كتفي هاني فنرفل بالمرح.. عندها لوجدت أول من يسخر من تأخري نعمان وآخر من يسكت كامل.. كأنّ عينيّ وقعتا على أيتام.. أيتام.. لايعرفون طعم البسمة والبهجة والمرح:

يا أمي يوم أمس واليوم ألف على المحلات في الشورجة وسيد سلطان علي وشارع الجمهورية أسألهم عن عمل بعد الظهر!

قالت أم ماجد معاتبة:

يا أخي كان عليك أن تخبر الخالة إنها كادت تفقد وعيها بسببك!

أما عباس فقد أراد أن يقول شيئًا ما فتردد لحظة ثم قال:

يا أخي البركة بالوالد!

قلت بنرفزة:

مصروفك ومصروف الآخرين.. هل فكرت.. هذه مسألة

لا تدركها فلا تتدخل فيها!

فقبض على شفتيه بسبابته وإبهامه:

الله! الله! لا أدركها كأنك ستصبح وزيرا أو متصرفا!

وقال نعمان بمرارة:

متصرف.. وزير دفعة واحدة.. يكفي أن رتبة ملازم أول حكمت علينا بالسجن.

تدخلت بتول:

إفعل ما يحلو لك لكن ماذنب أمي هل تخسر شيئا حين تخبرها أنك تتأخر.

وانضم أبي إلينا قادما من الخارج حيث كان يستطلع أخبار السجن، فاندفعت والدتي تسأله:

ما ذا سمعت عن هاني!

ذهبت إلى معسكر الرشيد حيث قابلت بعد اللتيا والتي نقيبا من أصدقاء هاني فتحقق وسأل ليخبرني بعد ذلك أنهم لن ينقلوه إلى نقرة السلمان بل إلى بغداد.

تساءلت أمي بين مستبشرة وشاكّة:

أكيد أم مجرد كلام؟

والله هذا الذي سمعته النقيب "قاسم" رجل صادق في قوله بالحرف الواحد قال لي إلى بغداد اللهم إلا إذا حدث أمر ما!

وماذا يحدث أكثر مما جرى؟

والله الـذي أفهمـه مـن تلمـيح النقيـب قاسـم أنّ هـاني سـيكون في سـجن بغـداد علـى الأغلـب إن لم يتـدخل بعـض كبار الضباط ممن له نفوذ في المحكمة.

على فكرة يا أبي أستاذنا محمد شرارة سيجد لي شغلا؟

قالت أختي مستغربة:

كيف يجد لك شغلا وأنت أمس واليوم تتأخر بحثا عن عمل وأي شغل!

فهمس نعمان لها متصنعا السخرية:

أسكتي هذه أمور لن تدركيها!

يا إبني أنا أخاف عليك والله هناك أشغال فيها مشاكل قد تدخلك في شجار أشغال غير مريحة!

وفلت كامل لحظة من بؤس عايشه منذ نكبة هاني فكاد ينسى مرحه إلا في هذه اللحظة:

هشام تذكرت يقولون: الشخص الذي يشغّل الشريط السينمائيّ أعور هل ذلك صحيح؟ "ورفع صوته مقلدا" لايفوتك ياولد خوش فلم ياولد!" وأكمل ساخرا" يعني لن ندفع أي فلس لدخول السينما!

فزجرته بغضب مكتوم:

أنت أسكت "إخرس ولا تتدخل في شؤون الكبار

فاندفع محمد الذي صحبته، قبل هجرتنا إلى البصرة،

مرة واحدة، يوم عيد إلى السينما فنام منتصف الفلم لكن أسماء ممثلين انطبعت في ذهنه، قال يخاطب نعمان:

لِمَ لا يكون هو البطل يعني أنور وجدي محمود المليجي أحسن منه!

فتجاهلته، والتفتُّ إلى أبي:

الأستاذ محمد رآني أمس بعد نهاية الدوام أبحث عن شغل في شارع الرشيد فوعدني بعمل محترم يجده لي خلال بضعة أيام والاستاذ محمد شراره لا يخلف كلامه.

طيب في هذه الحالة ماذا عن المدرسة!

سأنتقل إلى مدرسة مسائية!

هه هه هه ثلاث مدراس تنتقل إليها خلال أقل من عام مثل العرب الرحل الذين حكى لنا عنهم معلم التاريخ سالم!

كانت تلك عبارة كامل فقلت ضجرا:

عرب جواله غجر أي شيء المهم أن أحصل على عمل مضمون لا تعب فيه ولا مشاكل!

واللّه يا إبني أنت أعرف بمصلحتك!

وبدا أن الأمور شاءت أن تجري كما أرادت...

حسن حظ... طيبة قلب من الأستاذ شرارة... أيّة بشارة قذفت بي من مدرسة الكرخ التي شاءت قتلي إلى مدرسة الكاظمية، فأجد المدرسة والعمل.. لعلّ الحظ يبتسم لعائلتنا

قليلا ، ففي اليوم التالي خلال الدرس تطلع إليّ الاستاذ شرارة بنظرات ذات دلالة ، المبتدأ الخبر.. الفاعل .. المضاف.. ولابدّ أن تدخل السياسة لحظات في الدرس..ضربت الثورة العملاء فعل وفاعل ومفعول به.. الزعيم قاد الثورة.. العراق ذو ثروة غنيّ وكبير... أنوف العملاء مضاف ومضاف إليه.. وفي الفرصة ذهبت إلى الإدارة فبادرني المدير بالكلام:

على الرغم من أنني لا أرغب أن تترك المدرسة فإنني أشجعك لتعمل وتساعد والدك!

هذا يعني أن أملي تحقق في العمل إيه ياحاج نجم لن تكون وحدك انقطع راتب ابنك الضابط فستجدني معك:

أنا قلت له شرط أن تكمل دراستك في مدرسة مسائية!

أنا عند وعدي لك أستاذ!

أمس كلمت قريبي وكيل بلدية العاصمة ستكون مراقب عمل لكن عمرك أقل من ١٧عاما أنت الآن في الصف الأول المتوسط يعني عمرك الحقيقي ١٣ عاما وتلك مشكلة..

فقاطعت الأستاذ شرارة ولست معتادا أن أفعل ذلك معه:

أنت تعرف أستاذ إني لابدّ أن أعمل...

لاتخف!

فتدخّل المدير وهو يهزّ رأسه ليبعث فيَّ أملا كاد يموت:

مثلما يقول لك الأستاذ محمد إطمئن!

والله أستاذ من أجل هاني البطل البارحة اتفقت مع قريبي الاستاذ عبد الحق المهندس أن يغض النظر عن مسألة العمر!

وتدخّل المدير مشجعا:

قل لأي شخص معك في العمل يسألك عن عمرك أنك ذو سبعة عشر عاما...

وقال محمد شرارة:

هذا أقل واجب أؤديه لعائلة الملازم هاني.

أية بشرى أم أي خبر سعيد.. طموحي تحقق، لابدّ أن يكون مشروعي عظيما فالأستاذ محمد شرارة الذي يكره الكذب، والكذّابين اضطر إلى أن يصمت عن مسألة عمري التي تعيق تعييني..وها أنا أكاد أطير من الفرح، وفي نفسي غصة لأنني سأفتقد هذه المدرسة.. أنتقل إلى مدرسة مسائية.. ضحكت في سري وأنا أودّع مدرستي التي أحببتها بطلابها ومدرسيها وفراشها الطيب حين تذكرت قول أخي محمد مثل البدو الرحل كل يوم في مكان يبحثون عن الماء.. أو لأكن صادقا مع نفسي مثل الغجر الذين تضيق بهم الأرض فلأترك كل هذا ورائي لتتلقفني الدراسة خلال الليل والعمل في النهار!

٤

الحاج نجم

أنا والد الملازم هاني

يمكن أن تلقبوني بالحاج نجم .. هاني ابني الذي لم يصل ويصم في حياته أرسلني بعد سنتين من تخرجه إلى بيت الله الحرام..

يسألونني إحكِ تكلّم أسمعنا ماعندك!

ماذا أقول.. إنسان بسيط مثلي تضيع كلماته بين كلام آخرين يبدون أكثر ثقافة منه.. ابني الضابط نفسه الذي درس أكثر مني وتعلم، تحدّث فلم يصدقه أحد. الحكومة .. المحكمة.. القضاة سمعوه، فَلِمَ كان يتكلم.. هشام، ابني نعمان.. كلّ هؤلاء يمكن أن يتحدثوا بطريقة أفضل منّي مع ذلك فسأخبر عما يجول في نفسي لكي لايلومني أحد أو يُقال الحاج نجم سكت والساكت عن الحق شيطان أخرس.. وحاشا لي أن أنصت للشياطين فضلا عن أن أعاشرهم.

أنا رجل عسكري متقاعد.. جندي سابق لا أعرف تنميق الكلمات.. لا أجيد مهنة أخرى غير الجندية.. الناس من

حولي ربما منذ القِدَم يكرهون الشرطة ويحبون الجيش.. هكذا هم البشر ولعل تلك النظرة دفعتني إلى التطوع في الجيش فأحببت الحياة العسكرية وعشقتها.. تفانيت في عملي وأحببته حتى تمنيت أن يكون ابني الأكبر عسكريا.. أجهدت نفسي وحلمت به ينهي الصف الخامس الثانوي فيدخل سلك الجيش ورغبت أن يختم المرحلة الثانوية قبل أن أصل سن التقاعد كي يُمكِّنني البقاء في عملي من أن أرجو الضباط وأمراء الأفواج والوحدات فيباشروا نفوذهم على لجنة القبول في الكلية، وإن لم يغب عن عيني أن لأبناء العاملين في الجيش الافضلية في القبول..

وكم وددت لو بقيت وإن تجاوزت سنّ التقاعد في الخدمة حتى أؤدي التحية إلى ابني مثلما أؤديها يوميا إلى ضباط الوحدة التي أعمل فيها.

منذ البداية قلت إني إنسان بسيط.. جندي محترف تعلمت أن أقتل من يحاول أن ينال من بلدي.. لا أكثر.. أعرف أن العسكري يعمل أكثر مما يتكلم حتى إني أعجب الآن حين أسمع الزعيم عبد الكريم آمر الفوج الذي خدمت فيه يخطب في الناس طويلا، وأدركت أنه يستطيع أن يغيِّر كل شيء.. حين دخلت الجيش أقسمت لله والوطن والملك.. الكثيرون مثلي رددوا هذا القسم.. ضباط ونقباء وعقداء.. ثم

اصبح العهد الملكي عهدا بائدا..صار نوري السعيد خائنا..لم أشك أي يوم بأحد..لكني كنت مغلوبا على أمري..ابني الذي دفعته لكي يصبح ضابطا أراه ملقى في السجن بتهمة القتل في زمن حكم زعيم عاشرته وخبرت صبره وشجاعته أيّام العهد الملكي وخلال حرب فلسطين..ياسيادة الزعيم كنت معك، وددت مثلك أن ندخل تل أبيب ثم نعود إلى العراق مرفوعي الرؤوس حتى أرى ولدي الطالب في الثانوية فأحكي له عنك ثم أدفعه ليصبح مثلك..

نعم مثل شجاعتك وأخلاقك.. وجرأتك سواء عملت الثورة أم لم تعملها.. فجّرتها أم لم تفجرها فالأمر سواء عندي.. الشيء الذي أصابني بالذهول أن الملازم الأول هاني المعجب بك والذي قلدك في النزاهة والصدق فتوقعنا أن يصل في الجيش إلى رتبة زعيم هذا الضابط في أول سنة لحكمك يلقى به في السجون...

أكثر من سجن من دون أي جرم سوى أنه لايريد أن يخونك!

إنها عشرة عمر ياسيادة الزعيم.. أنا جندي بسيط وأنت مقدم في الفوج الثاني.. هي المرة الأولى التي أغادر فيها العراق، ولم تكن شهامتك ولا بطولاتك بعيدة عني.. عيناي ابصرتا قبل أذني، وتحسّسَتها جميع جوارحي.. هاني نفسه

فكرت فيه وأنا معك في فلسطين.. ثم عندما عدنا والحزن يخيم على رؤوسنا ومرت بضع سنين تجرأت وطلبت مقابلة النقيب آمر السرية:

سيدي عندي ابني هاني في الصف الخامس الثانوي أرغب أن يدخل الجيش بعد التخرج.

إسمع جندي نجم أنت عسكري قديم والقانون ينص على أن الأولوية لأبناء العاملين في الجيش!

لكن سيدي التوصية لها اثر.

أعدك أني أنا نفسي أتولى أمر الوساطة لكونك جندياً تستحق المساعدة فإن لم تنفع وساطتي آخذك بنفسي إلى العقيد عبد الكريم قاسم .. إنه ضابط قدير وله نفوذكبير.

لكن سيدي أخشى أن يحين أوان تقاعدي!

مع ذلك أعدك بالأمر سواء بوساطة أم لا فابنك مقبول إن شاء الله!

لا أدري كلما يضيق صدري أتذكر فلسطين وعبد الكريم قاسم الذي لمحته أكثر مرة..لو واجهت هاني أية مشكلة لذهبت إلى الزعيم وجها لوجه وخاطبته فسمعته وهو يحدثني لقد رأيته من قبل ولم أسمعه.. وها أنا أسمعه من دون أن أراه.. يا مقدم عبد الكريم ورد أمر في أن تسير بلوائك وتزحف نحو فلسطين.. فألح عن بعد المقدم عبد

الكريم ثم أسمعه يخطب في حين أجد هاني ابني الذي يهيم به حبا ملقى في السجن..

هناك ألف عائق يحول بيني وبين الإثنين الآن..

الزعيم من ناحية وابني من ناحية أخرى

كيف أصل إلى أيٍّ منهما؟

ولأيّة جهة أقصد وأنا ألهث من سجن إلى آخر؟أصبح الشيخ المتقاعد الوقور" جوابا للسجون والمعتقلات المنتشرة في البلاد هذه المرة تناهت الأخبار إلى أن هاني نُقِلَ من السجن "١" إلى سجن الموصل.. صلى الشيخ صلاة الفجر وهرع إلى مرآب السيارات في علاوي الحلة.. كان إفطاره صلاة لله وسجارة ينفث في دخانها بعض أحزانه.. وألقى جسده في الحافلة ليجد نفسه بعد خمس ساعات وتزيد في الموصل، ماذا يقول الحاج نجم لمدينة يدخلها ، القتيل المظلوم ابنها والقاتل المفترى عليه ابنه.. ومن الكراج إلى سجن المدينة.. توجّه إلى الحراس راجيا السماح له بمقابلة مدير السجن لعله يرحم شيبته.. ويخفف بعض أتعابه فيسمح له برؤية ولده ولو لخمس دقائق فقط.. دخل الشيخ مكتب مدير السجن الذي كان منشغلا مع بعض خاصّته باللغو من الحديث.. والتعليقات والنكات البائخة.. سلّم فلم يردّ أحد من الحاضرين له السلام، فجلس على مقعد في زاوية المكتب

بعيدا عن شلّة المدير، وبعد دقائق التفت إليه صاحب الشأن الذي كان يلتقط أنفاسه ويمسح رذاذ لعابه المتطاير من شدّة القهقهات الصاخبة التي كان يطلقها وزعيق صوته الذي كان يعلو على زعيق أصحابه، فبادر الشيخ قائلا:

ها حاج ما القصَّة؟

أنا جئتك ياولدي من بغداد أسأل عن ولدي الذي جلبوه قبل أيام إلى هنا.

من هو ولدك؟

ولدي هاني نجم!

امتعض المدير "فجأة احمرت أوداجه وانتفخ فكّه فازدادت حمرته:

ابنك هاني نجم؟!

نعم هاني نجم!

تعال قف أمامي، ثم واصل كلامه:كيف تجرّأت وجلست دون أن آذن لك!

"استنهض الشيخ كبرياءه وكرامته رادا على المدير:

كنت أحسب أن مجلسك مجلس ابن حمولة، يعرف أقدار الناس لعن الله الأقدار لا أريد الحديث معك ولا أريد رؤية ولدي"...

أذكر هذه الحادثة لأقول لأيٍّ كان: من شارك في حرب

فلسطين مع الزعيم يعتز بكرامته..في الحرب يتساوى الجندي والضابط.. أدركت ياسيادة الزعيم أنك ذكي حين قطعت طريقا قصيرا .. الاسماء مازالت في ذاكرتي ..جسر الشيخ حسين.. داية.. جفتلك.. نابلس.. آمر الفوج الثاني المقدم عبد الكريم قاسم يصد هجوما كبيرا للجيش الإسرائيلي ثم تأمرنا بالهجوم.. النار الكثيفة.. القصف.. حررنا المعسكر البريطاني.. بيارة المختار.. أسماء محفورة في ذاكرتي.. أنا نجم أبو هاني الموقوف في سجن الموصل الآن، الشيخ الذي حاول مدير السجن الانتقاص من كرامته.. لا أتذكر اسمه غير أني أذكر الأماكن التي مررنا بها.. فلم يخسر فوجك الذي أنا منه سوى أربعة جرحى... منذ اليوم الأول للثورة سمعت الناس يقولون: أنت يازعيم منصور بالله وآل البيت، ولا أشك- رغم غصّة خلّفها هاني - أنك منصور.. ولا أشكّ وإن ضعف بصري أني من الذين كادوا يرون صورتك على القمر لكني أنا الجندي القديم لا أقبل الإهانة قط.. لقد نهضت وتمتمت مع نفسي بصوت أعتقد أن المدير سمعه جيدا:

أظن واحدا مثلك ليس ابن أبيه.

وخرجت دون أن أقابل هاني.. ولا أعرف إن كان سيبقى طويلا في الموصل أم يعود إلى بغداد.. كدت أبكي في

الحافلة.. للمرة الأولى في حياتي أكاد أبكي..قد تنهمر دموعي للحظ التعس.. لحلمي الضائع.. ما أجمل أن يكون لجنديّ محترف ابن يصبح ضابطا ويترقى.. كأنني أنا أحمل نجمتين على كتفي في البيت تسألني أم هاني:

هل قابلته؟

كلا لم يسمحوا لنا!

المرة القادمة هل تجرب؟

لا أظن مادام موقوفا في الموصل!

حسبي الله.

هناك مدير السجن لا خلق له..شرس لا يسمح للناس!

لم أهتم أو أتزعزع سوى هذه المرة التي عدت فيها من الموصل.. مقاتل بقي محافظا على تراثه السابق..عشت سنوات طويلة بنظام لم أغيره.. قلت لهاني قبل أن يصبح تلميذا في الكلية العسكرية.. لا تظن حياة الجندية انتهت.. أنا الآن في حياتي المدنية أشبه بجنديٍّ يتشبث بموقع يعسكر فيه.. ربيّة.. خندق لايغادره.. وإذا أردت أن أؤدي لك التحية - بعد تخرجك- كلّ يوم قبل أن تغادر إلى المعسكر، فسأفعل، وحين تخَّرج عرف أني مازلت ذلك العسكري الذي وجدت نفسي فيه، فما أَخْلَفَ وعداً قطعه على نفسه. كان إذا ما واجه أمرا ما دخل عليّ غرفتي حالما

يأتي من المعسكر فيحدثني بما يَجِدّ.. لا يفشي أسراراً ولا خصوصيات.. أحيانا يجامل.. يرد فضلا.. يتصور أن لي في عنقه دينا عليه.. وعندما حدثت الثورة وجاء إلى البيت وجد بعض إمارات الحزن مرتسمة على وجه والدته.. هناك فرح في كلّ العراق. قبل الثورة سمعت من ابني هاني عن اليسار والوطنية والاتحاد السوفيتي أحاديث عامة ومصطلحات بعضها لا أفهمه.. قلت له إن العسكري لايمارس السياسة.. دع هذه الوساخة لأهلها لا أظنه انتظم في أحد الأحزاب التي بدأت تجاهر بعد الثورة.قال لأمه شبه معترض على حزنها:

مالك قلقة يا أم الملازم هاني عليك أن تفرحي فابنك ضابط في الجيش الذي صنع الثورة!

قالت عن حسن نية:

الدم يجر الدم ياولدي.. الملك مازال صغيرا ياهاني طفل بريء لم يقترف ذنبا حرام أن يُفعل به مثل هذه الفعلة!

قال وهو ينفي بهزة من رأسه:

لا لا.. الزعيم لم يقتله ولم يأمر بقتله الذي قتله عبد السلام وجماعته ولو طاوع ضباط الجيش الآخرون الزعيم لما حدثت المجزرة!

قالت ترد بشيء من الخوف:

دائما دم المظلوم يظل يصرخ حتى يأخذ الله بثأره من

ظالمه.

والتفت إليّ قائلا:

وأنت يا أبا هاني هل تؤيِّد ذلك؟

الشيء الذي أعرفه أننا حين تطوّعنا في الجيش أقسمنا نحن الجنود لله والوطن والملك وأنتم ضباط أكثر علما منّا!

أووه يا أبي تصرفات نوري السعيد وعبد الإله لم تعد تبقِ للملك أية حصانة إنهما مع الآخرين باعوا الوطن وخانوا الملك فأيّة قداسة بقيت للقَسَم!

والله يا إبني أنا لا أفهم السياسة لكني أخشى أن يكون ماجرى في قصر الرحاب علامة أتطير منها.

لا عليك يا أبي تذكر دائما أن الزعيم قائد الفوج الذي عملت فيه الضابط الذي دحر اليهود هو من قام بالثورة!!

يستطيع أن يقنعني ويقنع أمه.. بمرور الوقت أحببنا الزعيم لأن هاني تعلق به حتى كدت أراه في السماء..لا أخفي أني قبل يوم ١٤ تموز وودت لو ظل هاني يترقى من دون حدود.. يصبح عقيدا.. زعيما.. لواء .. أكثر وأكثر... كل جنود البلد وضباطه يؤدون التحية له.. لا رتبة أرفع من منزلته سوى عرش الملك لكني بعد الثورة وددت لو يترقى إلى رتبة زعيم.. الرتبة ذاتها التي يحملها الآن المقدم عبد الكريم قاسم.هذه الساعة أيضا أتمنى لو رجع الزمن إلى الوراء

فيرفض هاني من لجنة القبول فأرجو مقابلة عبد الكريم قاسم كي يتشفع لي.. آه لو كلمته أو أقتربت منه حين عملت معه.. لقد أحببناه حقا.. عرفناه لا يحب الدم..نسينا قصر الرحاب. وأدركنا الشر في نفوس كثيرة تريد بالبلد سوءا.. سمعنا عن مؤامرات القوميين والبعثيين وسخرية عبد الناصر من عبد الكريم قاسم فسال دم وحدثت معارك في الشوارع.مظاهرات تجتاح المدن هاني بعيد عنها..عسكري ملتزم بواجبه.. من البيت إلى المعسكر.. يقدس عائلته ويحب زوجته وطفله.. عسكري صارم مثل أبيه لكنه لا يحب الدم،ويوم جاءني ودخل الغرفه فانفرد بي يخبرني عن نقله إلى البصرة.. رجعت بي الذاكرة إلى تنقلي الدائم مع الفوج في أكثر من لواء ثم استحسنت الفكرة. بغداد بدأت تغلي وهناك اختلاف بين جماعة الزعيم والقوميين.. قلت أنا لا أفهم تلك المصطلحات بل أسمعها من ابني العسكريّ والمذياع.. كلمات جديدة اجتاحت البلد اليسار.. اليمين.. القومية.. الاشتراكية حتى الألوان أخذت الأحزاب تتقاسمها.. استحسنت جدا نقل هاني إلى البصرة.. يبتعد عن جو بغداد الموبوء.. ليبق هناك في الميناء سنة سنتين ثلاثا.. أربع.. إذا طالت المدة تبعناه وسكنا معه..

عندئذٍ تنفست الصعداء...

سيكون في أمان...

ونعيش نحن بعيدا عن العاصمة ومشاكلها التي أخذت تندلع مثل الحرائق كل يوم من دون أن أدري أن تلك النقلة ستقصم ظهر العائلة وتحطم آمالي.. وتقضي على كل حلم وطموح لي ...

دخل ابني البصرة ضابطا وخرج منها قاتلا...

الناس يهتفون باسمه بطلا والدولة تدينه...

ولا عتاب لي مع أحد سوى عتاب إلى قائد فوجي السابق المقدم عبد الكريم فأقول: أهكذا تتخلى عمن أحبك وأخلص لك، سبحان من يعرف الغيب وحده، فمن غرائب الأمور وعجائبها أن مدينة البصرة الهادئة الوادعة.. الطيبة.. البعيدة عن دم سال في بغداد تلصق بنا تهمة القتل...

كنت أذهب كل يوم جمعة للصلاة في جامع الأمير[11] القريب من تمثال أسد بابل من الجهة الأخرى لنهر العشار، فأرى وأحس شعور الناس، وعرفت إمام الجامع

---

١١ - جامع الأمير في العشار مقابل أسد بابل وقريب من شارع كانت معظم المحلات فيه يملكها فخارون يبيعون قللا فخارية.. وأنواعا من الزير تسمى بلهجة أهل البصرة " الحِب" بكسر الحاء، يوم كان الناس يبردون الماء قبل شيوع الثلاجات الكهربائية بهذه الوسائل الفخارية التي انقرضت تماما الآن.

السيد سعيد[١٢] الذي حدثني عنه هاني وامتدحه..قال إنه شخص وطني يحب بلده والزعيم ولا يكره أحدا..واعتدت بعد الصلاة إذ ينفض جمع المصلين أن أبقى مع قلة لأسمع كلامه ورده على من يسأله..إنسان مثلي تسيره فطرة لم تشبها أيةٌ من موبقات الحياة لابدّ أن يرتاح لسيدٍ إمامٍ معمَّمٍ يرى فيه الألفة والخير،رحت أواظب على الجلوس معه بعد الفراغ من الصلاة ،حدثته عن ابني الضابط.. لقد وعدت السيد أن أصحب ولديّ الصغيرين كامل ومحمد أو أيا من أولادي معي إحدى الجمع.. ذكرت إني رجل عسكري تربيت منذ شبابي على شعار اللّه.. الوطن.. الملك.. فأقنعني ابني أن الثورة لم تحدث على الملك.. ضباط الجيش يقرون أنه قُتِلَ ظلما.. ما أسمعه من المصلين يكاد يكون كلام هاني.. كان من عادة السيد الإمام ألا يتحدث في مواضيع السياسة قبل الصلاة..بيد أن هناك قلة تبقى بعد انفضاض المصلين يتحلق أفرادها أمام المنبر حيث يجلس الأمام فيباشرونه بأسئلتهم..لا شيء يستحثني على الخروج مبكرا

---

١٢ - السيد سعيد إمام جامع الأمير، شخص فاضل عرف بتأييده للزعيم عبد الكريم قاسم واليسار إلى درجة أن القوميين والتيار الإسلامي حينذاك اتهموه بالشيوعية لتشويه سمعته وحين توفي بعد انقلاب عام ١٩٦٣بأيام سارت جموع غفيرة في جنازته.

بل أبقى أسمع لأنني وجدت نفسي أحد هؤلاء الذين رؤوا في الشارع أشياء غريبة تظهر، هكذا، فجأة من دون مقدمات، مقاومة شعبية، اليوم عبد الناصر يباركنا ثم يشتمنا في صوت العرب، الوحدة العربية.. الصين الشعبية.. كأن العالم كله محصور في إذاعتي بغداد وصوت العرب.. ابني هاني مع اليسار.. هذا ما أعرفه، لايحب العنف.. كل عائلتنا لا تحب العنف.. أحد الجالسين سأل الإمام: مولانا.. يقولون الشيوعية كفر وإلحاد والكفر في الإسلام معناه الردة وقطع الرؤوس نحن نريد أن نعرف فمعظم أولادنا مع اليسار..ثم رأيت السيد يتأمل لحظة ويقول بهدوء: لا تغالوا في الأمور معظم شبابنا استوحوا من الفكر الماركسي نظريته في الاقتصاد فقط.. مادام الشيوعي العراقي ينطق الشهادة ويصلي فلِمَ نضعه في خانة الكفر.. لو طبقنا قاعدة الكفر على كل من يحب اليسار والاتحاد السوفيتي والزعيم لكان جُلّ العراقيين كفرة، هكذا قال السيد ومما زادني دهشة أني رأيت الشارع ينطق أيضا وأظنه ينطق كل يوم لأنني لا أخرج من البيت للصلاة إلا يوم الجمعة حيث أصلي خلف السيد، وأقضي جل أيامي في البيت، حين نزلت في ساحة أم البروم اتخذت طريقي عبر مركز المتصرفية باتجاه الجامع رأيت شابا يلوذ بالفرار ويلتجيء الى الأزقة الضيقة هاربا من

مجموعة تطارده.. سمعت من العابرين وبعض أصحاب المحلات أنه من القوميين استفز الشيوعيين فحاصروه، وتساءلت هل يضربونه؟ أناس تصيح بالسلام وآخرون يندفعون للعنف.. اتخذت طريقي إلى المسجد وحين خرجت بعد أن نهض الإمام وانفضَّت الحلقة انعطفت ،هذه المرة نحو أم البروم ، عبر سوق الهنود متحاشيا زحمة السيارت والمظاهرات الضخمة التي توقعت أن تتجه من الكورنيش بمحاذاة شط العشار فساحة أسد بابل إلى مبنى المتصرفية، وقبل أن تلفح رائحة الكاري والبهارات أنفي أغلقت عليّ سيري مظاهرة غير قليلة العدد يهتف من فيها عن الزواج والمهور وحياة الجمهورية والزعيم..ومما زاد استغرابي أني كنت أرى عوالم أخرى تتجدد كل ساعة.. ابني العسكريّ يقول كان الناس في كَبتٍ من نوري السعيد وعبد الإله وهاهم ينفّسون عن أنفسهم .. تساءلت إلى متى يظل الناس في التظاهر..لوأني مازلت في الجيش وأمِرْت بضرب هؤلاء لما ترددت وفي ظني أنهم مشاغبون.. كان هاني يفتخر أمامي أن نوري السعيد جلس في حضن عدونا الإنكليز.. فكلما مرت طائرة في الأجواء رفع رأسه نحو السماء وقال يا أبي هذه طائرة ميغ تحلق .. زمن العهد البائد كل سلاحنا نشتريه من عدونا أما الآن فنحن أحرار.. قبل أن يمر عام

أصبحت مدافعنا وبنادقنا من صنع شرقيٍّ.. لا أحد يحاصرنا. أما أنا فلم أر سلاحا روسيا طوالَ عمرٍ قضيته في الجيش. بندقيتي الإنكليزية يمكن أن أغسلها بالماء والصابون فلا يصيبها الصدأ.. كلّ شيء تغير واختلف وتبدل وهذه سنة الحياة:

السلاح الجديد تفسده قطرة ماء.

والمظاهرات في عهدنا إذا لم تنته بعد يوم أو يومين قيل إنها شغب وفوضى.

وماعليّ إلا أن أقبل الواقع الجديد...

وفي الجمعة الثانية اندفع شاب فوجه كلاما للسيد عن الاشتراكية، والعدالة أمور لا أشغل نفسي بمعانيها لكنها لا تفارق ذاكرتي.. فهمت من جوابه أن الزعيم يسير نحو الطريق الصحيح .شخص لا يحب العنف،ولا يرغب في القتل.. يحب العراق وأهل الجنوب.. رأيناه يقبل يد المرجع الأعلى.. أمر لم يفعله أي من الحكام السابقين.. السيد يقول: عندنا في المذهب المرجع هو وكيل الإمام والملك أو الحاكم خادم الإمام أما هؤلاء القوميون والبعثيون فيريدون شراً بالبلد!

ارتاح هاني حين حدثته بحديث السيد الإمام، وأجاب بهزة من رأسه هو منا لكنه لم يتحمس لزيارة الجامع..لم

أره يصلي ولا يريد أن يخدع أحدا أما أنا فلم أجبر أيا من أبنائي.. كنت أجد في قول الإثنين هاني العسكري، وإمام المسجد الرأي الصحيح الذي التزمته فلم أظنّ فيه أي خطأ ورأيت في سلوك الآخرين اعوجاجا وذنبا كبيرا.. وجدت ماتقوم به الدولة هو الحق وغيره الباطل..

وإن علي أن أكون من مؤيدي الزعيم..

وفي الجمعة التي تلت قتل العقيد جلال التقطت حديث المصلين قبل الصلاة .. راحوا يكبرون عملية القتل.. لم أشترك معهم. ولم أظهِرْ من أنا.. هناك في صدري شيء ما ينغزني..يثير شَكّا وخوفاً بين ضلوعي، من قبل لا يجرؤ جندي أن يتطاول على عريف في الجيش.. فكيف يقتل جنود ضابطا كبيرا... الشارع والناس كبَّروا الموضوع..ألصقوا التهمة عن حسن نية بضابط بريء.. لم أقل للمصلين في المسجد إني الحاج نجم أبو الملازم هاني .. ابني كان خارج المعسكر لكن تدخلت.. اعترضت.. قلت في مكان مقدس يدفعني الحق فيه إلى أن أتحدث عن حدّة من دون رياء:محال أن يقتل ضابط ضابطا مثله.. فأجابوا بل قتل ذلك القومي المتآمر ملازم أول وسحله جنود شجعان، على الرغم من كبر سنّي وحسن نيتي فقد ردّ عليّ الآخرون مستهجنين.. ضاعت كلمتي هدرا.. هو ابني يريدونه قاتلا وأريده بريئا

لأني أعْرَف به من غيري.. هاني الذي لاينافق ولايكذب محال أن يأتي معي إلى الجامع لأنه لايصلي.. لاينافق مع الله..فكيف أقبل أن يلصق الآخرون به تهمة هو بريء منها؟كيف أرضى له أن يصبح قاتلا فينزل من رتبة راقية الى مرتبة القتلة والسفاحين؟ تباطأت وهمست للسيد الإمام أني أرغب أن أنفرد به فانتظر حتى غادر المصلون وبقينا وحدنا..

نعم هل لديك سؤال شرعي ذو خصوصية؟

أنا والد الملازم الأول هاني الضابط في معسكر محمد القاسم لابد أن تكون يامولانا سمعت بقصة العقيد جلال!

فهز رأسه ونطق عن وقار وهيبة:

بلا شك.. أولادي في المنزل تحدثوا عن ابنك إنهم شباب متحمسون يحترمون الملازم هاني.

لكن يامولانا أقسم لك إنه لم يقتل أحدا!

وأين هو الآن؟

أرسلوه إلى الديوانية حيث الفرقة الأولى وسوف أبعث أخاه ليواجهه هناك!

الفرقة الأولى.. السيد حميد سيد حصونة معروف باتجاهه القومي..

لا أدري ماعلاقة ابني بجريمة قتل كان بعيدا عن

المكان ساعة حدوثها..

القضية ليست قضية قتل..بل القوميون والبعثيون لن يتركوا البلد يستقر ما لم يتخذ الزعيم خطوة تردعهم..

مولانا المعروف عن سيد حميد أنه قومي ولا أدري لم أرسلوا هاني إليه هو دون غيره غرض أن يحقق معه..

لا يخفى عن أي بصير أنّ عبد الكريم قاسم يحبّ أهل الجنوب وفق هذا التصور وضع ثقته عن طيبة وحسن نية بسيد حميد وهو يدرك أن هواه مع ناصر ويتحين الفرصة ليلدغ كالثعبان!

والحل الآن يامولانا هل لديك معارف في الجيش أو..

فأجاب بهزة من رأسه، وقال:

لدينا بعض الضباط وأبنائي يعرفون مسؤولين فعسى ولعل!

بداية طيبة، ولقاء يبعث في النفس راحة وانشراحا..مثل شخص يلهث فيقف عند جدول ذي ماء عذب.. صافٍ

بركاتك ياسيد أرجو أن تسعى منذ اليوم!

إن شاء الله

آمنت بالله!

منذ البداية قلت إني رجل بسيط من أهل الله كما يطلق عليّ الآخرون.. لا أجيد الكلام مثلما يفعل ابني المحامي

نعمان.. كان يرغب أن يلتحق بالجيش لكنه اختار التعليم ثم سجل في الحقوق.. كرهت له الجيش الذي أفنيت عمري فيه وكرهه بسبب مأساة أخيه .. ياسيادة الزعيم عتبي عليك.. ماهكذا العشرة تهون.. كدت تموت في فلسطين.. كدنا نموت جميعنا هناك.. الآن بعد كل ذلك يدان هاني من دون سبب فيذهب مستقبله هدرا..

ذلك اليوم، ياسيادة الزعيم، كنت أقضي فرض الصلاة بين يدي الله.. داعبت حفيدي ماجد.. ناغيته وترنمت معه... ضممته إلى صدري.. ماجد لاتخف سيعود والدك.. ستكبر وتصبح طويل القامة مثل أبيك.. ورمقت بعينين آسفتين كنتي الطيبة التي تحملت معنا الكثير فلم أسمعها تشكو أو تتذمّر.. ثم تهادى إلى أذني صوت الأذان وما أن باشرت الركعة الثالثة حتى سمعت صياحا وجلبة في البيت..

الزلزال العنيف..

الخبر المشؤوم...

أحد جنود المعسكر القريب من بيتنا لم يتحمل الصدمة.. غادر الثكنة وجاء مهرولا .. كان يصرخ طول الطريق الله أكبر حُكِمَ على هاني .. أدين هاني.. حتى وصل البيت. وقبل أن نتبين حقيقة الأمر ظنناه إعداما..

فارتجت الجدران.. وهاجت الدار سعلت أمّ هاني سعلات

متواصلة ثم شهقت وأغمي عليها.. وملأت أم ماجد وبتول البيت بالصراخ أما أنا فلم أقطع صلاتي بين يديّ الله في الركعة الثالثة كنت.. كأن الله مدّ إليّ يدا من نور فشاعت السكينة في نفسي فرأيت هاني وهو يسقط أمامي.. رصاص اخترق جسده لم يؤثر فيه.سقط ونهض...

فسلمت عن يميني وشمالي وكبرت التكبيرات الثلاث وإذا بالجندي يوجه لي الكلام:

تقبّل الله ياعم المعسكر في هياج فقد حكم على هاني بالسجن سبع سنوات!

أهكذا ياسيادة الزعيم،منذ الفجر،هذا اليوم حمل بشرى عظيمة للكثيرين سمعت من الإذاعة أنك ما إن أتممت العام الأول حتى منحت مليون بيت للفقراء في بغداد..

الصرائف انتهت كما وعدت..

زغاريد في الإذاعة.. فرح في الشارع..

هذا العسكري القديم المتقاعد نجم لن يطلب منك بيتا ويود لو وقف أمامك وأدى التحية وخاطبك وهو يتطلع في عينيك الساحرتين:

سيدي أنا العسكري القديم ابني هذا العام تخرج من الخامس الثانوي وله الأحقية قبل غيره لكن اللجنة في الكلية العسكرية رفضت طلبه فهل تشفع لي عندهم

بوساطة السيد نقيب السرية الذي يعرف أني كنت شاهدا على بطولتك في حرب فلسطين المقدسة..

فأيُّ يومٍ هذا الذي قابله ذلك الملازم التعس وأهله...

وأية ورطة أنا فيها...

لكن لا لن أرجو مقابلة الزعيم لأطلب منه بيتا فبيتي هو منزل هاني، ولا لأقول له إن ابني بريء حاشاه أن يقتل أحدا.. ليس هناك من شيء يسندني سوى أن أحمد الله.. ونهضت إلى حيث أمّ الأولاد التي بدأت تلهث وهي مغمضة العينين بين أيادي الكنة وابنتها!

الحمد لله!

قلت ذلك وترقرقت الدموع بعيني...

الجزء الثالث

الرّصيف

استهلال

هي الجنة بعينها هذا هو الشارع....

ولا أشك

أنتقل من زقاق إلى آخر...

ابن شارع مهذب

يخافني بعض الباعة على الرصيف...

لقد أصبحت رجلا قبل الأوان ولا أحد في سني يحمل بداية كل شهر مبلغا في جيبه مثلي..

ومن أجل أن أظل أطوِّف في الشارع بكيت ذات يوم وتوسلت!

فهي الجنة بعينها

راتب مغر...

ماذا أقول بحقك أيها المدرس النبيل محمد شرارة..

١

عشرون دينارا

لعل الأيام والشهور والسنين تكمل بعضها وإن طغت عليها سنةٌ رحل فيها هاني..ففي الرابع من نيسان/ ١٩٦٠ كنت أقبض على أمر التعيين بقوة كما لو كنت أمسك مفتاح السعادة.. يقال نيسان شهر الكذب، كذبة نيسان تخطتني فأصبحت حقيقة بيدي، مراقب فنّي للبناء..عشرون دينارا..أجل عشرون دينارا كل شهر نعتاش منها فيشتري أبي بيتا لنا...

أنا لا أقول ذلك ولا أدَّعي. أمانة العاصمة حسمت الأمر.. لقد كنت"مراقبا دون أن أعرف كنه عملي وحقيقة أبعاده.. كان تعييني مخالفا لكلّ قانون، فأنا أحمل واسطة، وهذه الواسطة هي التي جعلت من صبيّ قاصرمستخدما على الملاك الدائم بعد أن دفعوا بعمري..حفروا الزمن، غيروه.. تلاعبوا به.. كلّ ذلك لكي أكبر سنين قبل الأوان"!

لقد أصبحت بغداد أمامي خارطة مفتوحة، طرقاتها.. شوارعها بيوتها.. أزقتها.. تارة أراقب أعمال بناء.. وتارة

أكلف بمهام مراقب يرفع التجاوزات مما يحدثه الباعة المتجولون حين يعرضون بضاعتهم على الأرصفة والممرات، وأخرى أعمل مراقب تنظيفات.. كلها عملت فيها.. ربما تصيب الدهشة من يقع عليّ بصره للمرة الأولى.. مراقب يبدو في الثالثة عشرة من عمره وهو في الحقيقة ابن ستة عشر عاما لكنّ هناك شبابا يبدون أصغر بكثير من أعمارهم.. هكذا يقنع الآخرون أنفسهم بي.. وقد أقنعت نفسي قبل أن يقتنع بي الآخرون. كنت "أخرج من البيت في الساعة السادسة صباحا ولا أعود إلا في العاشرة مساء، كنت ابن شارع مهذبا". عشت مع مستخدمين وموظفين في البلديّة، وهنا رأيت العجائب والغرائب. أبصرت كيف يسرقون من الكادح لقمته، وكيف تُنتَهَكُ ساعته والويل له إن لَمْ يُعطِ فجزاؤه مصادرة كلّ مايملكه وضربه ضربا مبرحا.

كنت أراهم ينهبون من هذا درهما ومن ذاك مثله. كانوا كبارا غزا الشيب رؤوسهم، لكن نفوسهم لم تشبع من هذه التي يسمونها الدراهم".

أما أنا فكنت أتحاشى كل ما يوقعني في ورطة.. لا أنكر أن بعض الباعة همّوا أن يستميلوني.. ألمح من يغمز لصاحبه في أن يقدم لي شيئا ما أو من يتحدث بكلام ملغّز واضح.. وأنا لاتهمني الرشوة بل لا أفكر فيها حفاظا على

وظيفتي الذهب.. عشرون دينارا تكفي الأسرة.. أما قلبي فقد يلين بعض الأحيان لتوسلات صبي يعرض على الرصيف لعبا ورجاء امرأة تربعت خلف بساط فرشت فوقه بعض الملابس، أحيانا وليس كل الأوقات أتجاهل.. أتصنع أني لا أرى فأمر مرور الكرام وفي أعماقي أن تنالني بالخير دعوات تلك المرأة أو توسلات كهل ينادي على المارة ،وهو يستعرض بضاعته، تراجعت وتأملت.. من مكان ما.. وقفت مقابل امرأة تفترش الرصيف، قرأت في عينيها توسّلا كأني لم أرها، الله يحفظك ابني، صاحبة أطفال الله يحفظ شبابك، وعلى بعد خطوات في مكان آخر واجهت شابا يقف خلف لعب أطفال كان يؤشّر بيده اليمنى وعندما اقتربت منه وجدت يده اليسرى من غير أصابع. تحرك فيّ الجانب الإنسانيّ كأني سمعته وأنا أتطلع في عينيه المتوسلتين:

الله ينجيك من كل شر، صاحب عيال كومة أطفال وأم مريضة. الله يحفظ شبابك ستدعو لك أمي في كلّ صلاة!

أحيانا أروح أعرض عن المكان الموكل إليّ. أتخيّل أني حين أهرب بضع ساعات فإنّي أنجو من جحيم ألتهمه يوم الحساب.. الرشوة.. أو تجاهل الباعة على الأرصفة وعند الساحات العامة والأزقة.. فتقبلت عن رضاً العقوبات التي لمَ أسلم منها بعض الأشهرْ ...

خصم خمسة أيام من الراتب لغيابي عن المكان..

قطع راتب ثمانية أيام إذ لم أرتدِ الملابس الرسميّة.

تسعة أيام لتجاهله الباعة المتجولين..

كنت ألزم الصمت، ولا أفيق إلا على وقع بعض عربات الخيل، وأصوات السيارات أحيانا كانت هناك مظاهرات تجتاح الشارع تمر بي عن بعد. أتذكر مظاهرة المدرسة التي رفعتني، والأخرى الغاضبة حيث انحشرت بين من لوحوا بقبضاتهم وجدار المدرسة، يعيش.. يسقط.. يعيش الزعيم.. يسقط الخونة.. لا شغل لي بالشارع.. بل أفكر بأخي هاني أين هو الآن.. يعيش الزعيم.. يسقط المتآمرون لكن مادام هاني في السجن فالزعيم نفسه في السجن.تلك هي هواجسي.. صبيّ صغير يتوزع يومه بين المدرسة والعمل لا يعرف اللعب ولا دور التسلية.. هل أغرم بكرة القدم أم المصارعة.. أسمع عن الدورة الأولومبية.. لو مازال هاني طليقا لكنا اشترينا جهاز تلفاز فسمعت عن الشعر والرياضة ورأيت الزعيم يخطب في أماكن يزورها.. لكني اعتدت على أن أرى المظاهرات عن بعد، فألتفت لأجد أنّ تحت الجسر الحديدي امرأة في الخمسين من عمرها تجاوزت على الرصيف فأعاقت السير بقطع ملابس وبعض البدلات:

يا خالة ممنوع.. يا حاجة.

الله يخليك لأهلك ياولدي أرمل.. أقسم عليك بحليب أمّك الطاهر ...

يا خالة ابحثي عن مكان آخر.

أين أذهب الله يكفيك شر الدواهي...

كم تمنيت مثل هذه الوظيفة.. حلم.. كنت أفكر بعقلية صبي.. قد تدفعني الطيبة إلى غض النظر عن التجاوزات.. لعلّ الله يوفقني في عملي ودراستي.. بعد يومين استدعاني حسان المراقب العام ذلك الرجل الأريحي الذي تربطه علاقات حميمة مع الأستاذ شرارة.. كان يعاملني بلطف كأنني صديق، وربما ينقل إلي أحيانا تحذيرا من عمل ما بصيغة النصح والإرشاد. قال لي هذه المرة بنبرة جادة لا تخلو من الألفة:

قبل يومين كان هناك تجاوز على الرصيف عند عمارة حافظ القاضي من رجل يبيع لعب الأطفال ومخالفة أخرى من امرأة تبيع الملابس قرب جسر الجمهورية.

لزمت الصمت برهة:

والله لم أقاوم توسلاتها امرأة تدعي أنها أرمل..أما الآخر فقد فقد بعض أصابع إحدى يديه..

الرجل لا أعرفه قد يكون صادقا لكن لا عليك منها هذه دلالة تبيع وتشتري تجلس على الرصيف ثم تزور البيوت

تعرض بضاعتها..

إذاً واجهت ممثلة من دون أن أدري وأنا أصدق كل ما يقال.. اجتزت شهر الاختبار وتم تثبيتي في الوظيفة لكن هل أثق بكل ما يقال:

لو رأيتها وهي تتذلل حقا لقد كسرت خاطري...

فهز رأسه متأملا:

أنا مثلك أحب الفقراء.. الله والأنبياء والزعيم يحبون الفقراء.. لكن عليك أن تحافظ على وظيفتك .. أهلك بحاجة إلى نقودك.. مستقبلك.. أقل تهمة يمكن أن يوجهها إليك مسؤول أعلى منك أنك حابيت وأخذت رشوة.. حصلت على سلعة ما مقابل أن تغض النظر عن التجاوز.. هذه الأيام كثر أولاد الحرام، فلا تمكِّن الآخرين من أن يوجهوا لك أي طعن ولوم.

لا أريد أن أصبح ضحية مثل أخي هاني.. ترى هل كان يعني ذلك..؟حسان رجل طيب تهمه مصلحتي.. يريدني أن ألجم مشاعري .. أصبح آلة.. لا أبكي ولا أحزن.. لا أرق لفقير.. كلنا نحب الفقراء.. إن كان أخي ضحية فما عليّ إلا أن أقسو على نفسي.. لا أصدق الآخرين كما لو كنت في قلوبهم فأطلع على سرائرهم.. عشرون دينارا في جيبي كل شهر.. أقبض عليها مثلما قبضت على الدنانير الخمسين

التي كانت أمانة في جيبي من هاني.. اليوم أو غدا أيام معدودة ويشتري والدي بيتا حينذاك لا نضيق ذرعاً، بمبلغٍ، يذهب، مطلع كلّ شهر، للإيجار، فتعتمد الأسرة على راتبي وراتبه التقاعدي...

لقد تجاهلت أيّ تعب أستقل الدراجة كل صباح إلى أمانة العاصمة فأتابع عملي في الحارات والشوارع.. ألتقط أنفاسي في البيت ساعة أو أكثر بقليل ثم أركب دراجتي إلى مدرسة بيوت الأمة... عشرين كيلومترا لايهم.. وأنا آمن مطمئن..لا مشاكل ولا منغصات.. أحلم بيوم الجمعة وليلتها حيث لاعمل ولا مدرسة، ويكون ذهني معلقا بالكتب المدرسية، فأحاول أن أعتمد على ذاكرتي ومايظل عالقا بذهني من شروح المدرسين..

هو اليوم الوحيد من كلّ أسبوع الذي يجتمع فيه شمل العائلة فنتغدى مجتمعين على مائدة واحدة بعد أن يعود الوالد من الصلاة..وكانت أختي "هناء" تزورنا بعض الجمع وقد بدا لي أن حملها بدأ يؤثر فيها ولم تتغيرّ ابتسامتها.. أنا أعرفها جيدا أختي الكبرى تكبت في نفسها كلّ شيء. تظل تحترق من دون أن تشعر الآخرين.. تتألم.. تعاني.. تتلقى أية صدمة بهدوء. فلا تقرؤ على وجهها أي انطباع بالألم.. أما أمي.. وأختي بتول فتظهران كلّ جزع.. مازالت سحنة بتول

الى اليوم تتغير وتنقلب حين تصادف في الطريق أي ضابط يتمايل مزهوا بملابسه ورتبته، فتتهمر دموعها كأنها تعيش مع الماضي الجميل الذي رأت فيه أخاها الأكبر ضابطا ثم بلمح البصر أبصرت الزعيم هاني معتقلا في سجن ما .. أي سجن.. لا تعرف في أي لواء لكنه سجين.. ولربما ازداد حزن أمي فلم أرها مبتسمة منذ الحادث.. باتت نوبة السعال تداهمها في كلّ وقت حتى خشينا أن يكون في صدرها داء معدٍ غير أن فحوصات الأطباء نفت أن يكون هناك أي شيء من الذي خطر في بالنا سوى التهاب الرئتين...

تلك الجمعة حملت إلينا فرحا وحزنا..راحة وقلقا..

هل حقا يمكن أن يستوعب بيتنا الصغير أمرين متناقضين...

كنت حاضرا في البيت غائبا مع دروس المساء فلا وقت لدي للمذاكرة إلا هذا اليوم ..فرح بزيارة هناء التي مسحت على رأسي وهي تقول:

الله يكون في عونك دراسة وعملّ

دائما أحس أنها أمي.. هناء: ولو قرأت المستقبل لعرفت أية تضحية ومغامرة تقومين بها من أجل هاني..فرفعت رأسي إليها ومازال كتاب الكيمياء بين يدي:

المهم شدي حيلك أنت لكي أصبح خالا عمّا قريب!

ودنا منا كامل فتساءل ضاحكا:

هل بينكما أسرار؟

قلت بشيء من التأفف:

أتركني أريد أن أذاكر.

فقال نعمان بشيء من المرح:

يا أخي سنترك البيت كلّه لك أيام الجمع القادمة، وسنذهب للعمل في القطعة التي سيشتريها أبي!

كان أبي قد ذهب مع زوج أختي للصلاة وأخبرنا أنهما بعد الانصراف من الجامع سيقصدان مع صديق ليرى قطعة أرض عُرِضت للبيع.. كان أخواي يفكران أن يعملا مع أبي في البناء يوم الجمعة مع ذلك اعترضت:

سأذهب معكم وأعمل سنكون مع البنّاء أربعة!

تدخّلت بتول:

ودروسك؟

قلت ممازحا:

حين تصعب عليّ مسألة أسألكّ.

ولم تبتسم كأنها أمي بالضبط. غابت عنها الابتسامة والمرح.. وذاب قلقها في موجات السعال المتصاعدة من والدتي التي كانت تشهق ، وتتنفس بصعوبة.. فاجتاحت البيت حمّى وهياج وفوضى.. وكادت بتول تصرخ، أما هناء فبقيت

متماسكة لكنها اتجهت نحو باب البيت فارتدت عباءتها وهي تقول:

سأستدعي سيارة تأخذنا إلى المشفى..

ماهي إلا لحظات حتى غادرن البيت يصحبهن نعمان وعباس فبقيت وحدي مع محمد وكامل...

٢

بين العيدين

ها أنا أرى أشياء عجيبة غريبة

يوم راحتي الجمعة تلاشى ...

غاب.. نسيته تماما..فخرجت مع أخوتي إلى بغداد الجديدة أعمل في البناء ..رحت أعتمد على ذاكرتي تماما ، وما يعلق بها.. أقود الدراجة وذهني يستجمع كلام المدرسين... لا شيء يشغلني سوى المدرسة.. وفي الليل حين أعود من مدرستي أجد السكون يخيم على البيت فأغتنم فرصة ساعة أو أكثر لأقرأ دروس اليوم.. حتّى اكتمل بيتنا وانتقلنا إلى بغداد الجديدة...

أصبح لنا وطن آخر صغير، ولم نفرح كأن أنفسنا تشبعت بالمرارة.. أما أنا فكنت أتنقل من شارع إلى آخر.. أعاقَب بعض الأشهر،فاعطي والدي الراتب،فلا يسألني إن كان هناك نقص في الدنانير لأنه يظن أني أنفقها على شراء مايخصني من سلع وحاجات، ولم أجرؤ أن أخبره بالحقيقة لا خوفا من الشيخ الوقور المسالم بل أتحاشى أن أزيده قلقا

على ما هو فيه...

لقد وجدت نفسي وجها لوجه مع حياة أخرى تختلف عن البيت والمدرسة.. صبي وديع حالم.. تطاول على الزمن فأضحى أكبر من عمره.. لكنه ظل رقيق المشاعر والجسم لا يعرف من الحياة إلا أحلام الصبا ومشاعر الأطفال حتى إذا جاء اليوم الذي أرسلت فيه إلى المنطقة المحظورة وجدتني أكاد أكتشف نفسي على حقيقتها..

العاهرات عرفنني طفلا. قبل موظفي دائرتنا وبائعي الأرصفة الذين مازالوا يظنونني كبيرا بملامح صبيّ صغير...

كان ذلك قبل العيد بيوم...

ولاعيد في بيتنا بل لاطعم لكل مظاهر الفرح التي يعيشها الناس من حولنا الشيء الوحيد الذي كان والدي يفعله هو أن يشتري بدلة جديدة لحفيده الصغير...

في ذلك اليوم الذي سبق العيد قيل لي إن عليّ أن أكون مراقبا للتنظيفات والبناء في منطقة الميدان[١٣] التي "لم أكن أعرف بواطنها وأسرار أزقتها فحملت تصريح المرور وذهبت..

صبي وديع حالم رقيق المشاعر والجسم لايعرف من

---

١٣ - الميدان منطقة سكن العاهرات أو هي حي البغاء موقعه بالضبط قرب وزارة الدفاع وكانت الحكومات في مد وجزر مع الميدان تارة تمنع الدخول وتارة تأمر الشرطة بمغادرة المكان...

الحياة إلا أحلام الصبا ومشاعر الأطفال، وأمامه العيب.. والشرف والأخلاق..سلوك لقنه إياه أبوه وأمه ورسخته في نفسه المدرسة ليجد نفسه في مبغى ..

مفاجأة أذهلتني

لم أكن أعرف بواطن الميدان إلا بعد أن دخلت ذلك المكان .فتبين لي أنه مجمع بغايا في بغداد..

هي المرة الأولى ولم تكن الأخيرة..

هذه العاصمة التي تثور كل يوم وتهتف..يعيش ..يسقط.. في عمقها بؤرة صغيرة للبغاء..كانت السلطة أحيانا تمنع الدخول إليهن فيروح طالبو الشهوة يتجمعون عند مداخل الأزقة المفضية إلى بيوت الدعارة لعل بعض الشرطة يلينون برشوة .. أويغضون النظر.. كان معي كتاب يثبت أني مراقب هذا الحي.. فيسمح لي بالدخول كأي مسؤول كبير وسط تذمر جموع المتجمهرين المحشورين في مدخل الزقاق ظنا منهم أني أدفع رشوة... يا أبا إسماعيل[١٤] نحن ندفع مثلما يدفع الآخرون، ولربما شكّ هؤلاء أني أحد الصبية المنحرفين من سكان هذا الحي في حين تعلو" صيحات السخرية والاستهزاء حين أتوجه إلى الشرطة فأدخل الأبواب

١٤- اعتاد العراقيون أن يطلقوا كنية "أبو اسماعيل" على الشرطي، ولا أحد يعرف من أين جاءت تلك العبارة.

من أوسع رتاجاتها ،وتظل في أذني زعقة ما على الشرطي مشفوعة بتوسل صاحبها: يا أبا اسماعيل..ندفع لك أضعاف ما....

وهكذا ألفتْ البغايا وجودي..كنت أشاهدهن أيام غياب الزبائن ضجرات برمات بحالهن، متوسلات لخالقهن أن يفتك بمن قطع أرزاقهن.. لقد اعتدن – كلما أقبلت في الحي- أن يرددن مجتمعات وكأنهن في مجموعة غناء:

ها لم يبق إلا مراقب البلدية ياليت فيه خير ويدفع..
صلوات صلوات فات الحلو فات...

وحدي معهن وجها لوجه...

نساء مبتذلات يشبهن قطيعا من إناثِ نمورٍ حبسن في قفص فمنع عنهن الطعام أياما فدفعتهن رغبة الجوع للانتقام..

كنت أيام رفع الحظر عن الحي أشاهد الأزقة مملؤة بالحركة والحياة والمساومات أمام الأبواب التي تفضي إلى جحور البغاء ولأشد ما أثار عجبي ودهشتي أني صادفت كثيرا من رجال الحي الذي أسكنه.. أناس معروفون بالورع والتقوى.. ووجدت من إذا سار في الطريق سار خجلا من نفسه وعيناه إلى الأرض.. الشريف والغني والفقير ومن عرف بتقواه وفجوره... زبائن دائمين من غير أن يسألني أحد منهم

عن سرٍّ وجودي في مثل هذا المكان!

ذات صباح قبل العيد وليس في بالي أيّ حلمٍ بفرحٍ ما سوى أن أشتري شيئا ما لعبة أو ثوبا جديدا لابن هاني.. ولا أنهض مبكرا من فراشي خلال أيام العطلة ثمّ أنكب على دروسي، فقد ولت أيام زمان حين كانت والدتي وأم ماجد تعملان في الليل كليجة العيد[١٥] فأحمل الصينية وأذهب إما وحدي أو مع نعمان الى صاحب الفرن في المحلة... الآن .. في ذلك الصباح الذي فقد مساؤه طعم الكليجة.. حملت كتابي وتصريح المرور إلى حارة الميدان، فاخترقت حاجز الشرطة وسط استهجان المتطفلين.. وطالبي اللذة.. كان الحصار قد اشتد بالبغايا..وحدي رحت أمر بحارتهن.. كنّ متجمهرات زرافات على مدخل هذا البيت أو ذاك يثرثرن أو يلعبن الطاولة ومجموعات وسط الزقاق منكبات على الدومنا والورق ... لمحنني أقترب من حيث يجلسن .. قالت واحدة من الواقفات تتأملني لحظة وعيناها على اللاعبات:

جاء مراقب البلدية.. زغرودة.. هللويا..

وتوقفت لاعبة دومنة من المجموعة الثانية فارتفع صوتها نحو اللاعبات يمين الزقاق زاعقة:

---

١٥ - نوع من كعك العيد المحشو بالتمر والجوز المطحون اعتادت العوائل العراقية عمله في الليل قبل يوم العيد.

ياه..ليته فيه الخير فيدفع مثلما يفعل الزبائن!

روح النكتة فارقتني من قبل. في الشارع.. العمل .. البيت الصامت.. لا لعب ولا مرح سوى أنّ السخرية راودتني فجأة في هذا المكان.. أهو تشفٍّ أم انتقامٌ.. كيف تجرّأت واندفعت أجاريهنّ بلسان بذيء:

لماذا لا تلعبن الشطرنج يقال الورق حرام!

ردت عاهر في الخمسين وهي تغمز بحاجبيها:

من قال ذلك المفتي أبوك!

وضحكت أخرى في الثلاثين من عمرها وهي تهز خصرها:

مازال بالقماط وبقدرة قادر أصبح أمام مسجد.

أمامهن وجها لوجه .. طفل لا يعرف اللعب..شَغِلته أمور عن كرة القدم.. والسباحة.. والركض..رفعه التلاميذ وهتفوا باسمه.. رآى نفسه كبيرا ذات يوم.. منذ تلك اللحظة شعر أنه رجل..صبي رجل.. في داخله طفل يتحرك لأقلّ مشهد غريب، في الشارع دفعتني الشفقة لتجاهل باعة متجولين تجاوزوا على الأرصفة والشوارع ونسيت العقوبة.. وفي المبغى راودتني روح السخرية فقد مللت من بيت يخيم عليه الصمت والحزن فبادرت دون وعي قائلا:

مادام الأمر كذلك فعلى بيوتكن هدم بعد أيام."اختفت

النكتة من ذهني .. تلاشت السخرية.. هززت رأسي، وقلت مؤكدا الخبر الذي اختلقته" نعم بضعة أيام فقط!

قابلني إعصار من زعيق وصياح:

أين نذهب إلى بيت أمّك؟ ثم اندفعن نحوي..

هجمن مثل اللبؤات الجريحات...

تساقط المكياج المفتعل عن وجوه بعضهن فلم أر سوى عيون حمر تسطع في النهار وأفواه تكشر عن غضب.." ثمّ انهالت عليّ أياديهن بالضرب، وأرجلهن بالرفس في الوقت نفسه راحت أيادٍ بأصابع ذات مخالب تشدّ شعر رأسي حتى كدت أختنق..

هل بقي جزء من جسمي لم يصبه أذى من الضرب والركل وصفعات النعل.. والعض.. لقد أفرغن كلّ ما في نفوسهن من حقد على الشرطة ومديرها وعلى الدولة التي منعت عنهن الزبائن الباحثين عن اللذة سوى أنها نكتة كلفتني الكثير..فخرجت مثخنا بالألم "فزعا إلى حيث الدائرة فطلبت الرحمة بي.. توسلت، ورجوت ألاّ يبعثوني مراقبا إلى ذلك الحي الكابوس العجيب الغريب.. " فاكتفوا بنقلي إلى مكان آخر وجدت فيه الدعة والأمن لكن ذوي الشأن جعلوا من الحدث سخرية بي كلما أراد أيّ منهم أن يرفّه عن نفسه طلبني إلى مكتبه لأروي له الحكاية

المضحكة المبكية فينفجر هو وزمرته بالقهقهة والضحك فكان الموظفون الكبار يحبون أن يسمعوا مني هجوم العاهرات فيتلذذون بما يسمعون من دون أن ينطقوا حفاظا على هيبتهم" أما التعليقات الساخرة فانهالت علي كالمطر من الملاحظين ومعاونيهم ومفتشي الطرق.. لو مت بين أيديهن لسميناك شهيد القحاب...أنت في المبغى غريب مثل صالح في ثمود... الحمد لله على سلامتك إنّك نجوت بأعجوبة تصوروا نبيّ الله يحيى قتلته عاهر وهشام نجا من عاهرات .. معجزة.. يستحق لقب نبي.. محتمل أن يهديهنّ الله على يديه...

حقا لقد ضُرِبتُ من العاهرات ضربا مبرحا قاسيا.. فسخر مني مسؤولون وجعلوني محورا لنكاتهم غير أني أخفيت كل ذلك عن أهلي فلم أخبر أحدا منهم قط بما حدث لي ذلك النهار.

أما العيد الثاني فبدا لي حين حلّ أكثر رونقا وبهاءا فما بين الأضحى ورمضان مسافة شهور وأيام.. كنت ضحية الأضحى، ولولا شغلي المتعب في النهار والمدرسة التي تستهلكني عند المساء لصمت.. لكن والدي كان يواضب لا يترك فريضة الصوم على كبر سنه.. لايهمه الحرّ ولا الشتاء يتحدث أيام العز عن النهوض في الصباح الباكر والتدريب اليومي كأن تلك الحياة القاسية تمنح الشباب

الدائم، وجدناه ينهض منذ الفجر فيحمل سلّة طعام كبيرة تعاونت أمي وكنتها وأختي على عملها في الليل فيخرج بها قاصدا سجن الكوت، وعندما عاد في المساء، قال وهو يزيح السلّة الخاوية:

لم أجد هاني وقبل أن تشهق أمي أردف:

قال لي أحد الضباط في المعسكر ممن أعرفهم أنهم نقلوه إلى سجن ١ في معسكر الرشيد هنا!

المهم هو قريب منا هنا في بغداد.

وعلقت أختي بتول باشمئزاز:

أصبح الطعام الذي تعبنا في عمله طول الليل في بطون حرس المعسكر.

لا لا طلبت من الضابط أن يمنحه للسجناء أصحاب ابننا!

فتمتمت بصوت مسموع:

ألف صحة هنيئا لمن أكله

قلت ذلك وخطرت في بالي فكرة ما... مغامرة .. أو محاولة.. هذا العيد لم يضربني أحد، فقد يحمل عيد سابق شؤما وآخر لاحق خيرا.. غدا العيد ولا جديد في بيتنا سوى بدلة ماجد هديّة الجد.. ولعبة منّي.. فلِمَ لا أحاول.. أسبق أبي في الذهاب إلى اليرموك حيث بيت العقيد عبد الرزاق

النايف[١٦].. خلال تجوالي في بغداد عرفت شوارعها وأزقتها وخبرت معالمها كأني فاتح موتور يتجول في مدينة اقتحمها .. مثل الإسكندر المقدوني.. لم تستعص عليّ إلا مدينة العاهرات.. لا بل أزقة العاهرات اللائي ضربنني.. فهذه بغداد تنبسط لي بكل شوارعها فألمسها بيدي .. قد تكون هي مدرسة المعقل يوم رفعني الطلاب فشعرت من يومها أني كبير أقدر على أن أحقق أشياء يعجز عنها أبناء جيلي.. مدرسة جعلتني بطلا.. زرعت روح المغامرة بي فظننت أني جيفارا ولينن والزعيم.. ومدرسة حاصرتني وطردتني فهربت منها خائفا وجلا.. وها هي اليرموك تستقبلني كأية مدينة تخضع لي فأرى بيوتها وأعرف بيت العقيد النايف.. هناك أحاول أن أزور مجرد زيارة مع من يهنؤون العقيد من أقاربه وعشيرته.. أراه.. أعمل مفاجأة.. لن أكون مشاكسا في اليرموك مثلما كنت مع العاهرات... ولا خائفا من عصابة تلاميذ حسبتني قاتلا فطلبتني بثأر ومادامت هناك فكرة في رأسي فلابدّ أن أجد الليلة تطول.. يمرّ بي الوقت ثقيلا ،

---

١٦ - عبد الرزاق النايف مدير الاستخبارات العسكرية زمن عبد الكريم قاسم ولد في الفلوجة، رئيس وزراء العراق بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ بقي في الوزارة من يوم الانقلاب إلى ٣٠ تموز ثمّ نفي إلى لندن واغتيل فيها بتكليف من صدام حسين.

فيقطع عليّ حلمي صوت أبي:

اليوم اضطررت إلى أن أفطر غدا عيد الحكومة وأنا أفطر بعد غد سأذ هب لزيارة السجن في عيدنا[١٧] لعلّهم يسمحون لي بمواجهته.

فقالت بتول:

أبي هل تأكدت أنه في بغداد؟

الضابط في سجن الكوت يعرف أخاك ولا يكذب وأظنّه ليس من القوميين!

ويبدو أن أشد ماكان يضايق أبي أن يذهب إلى مكان يقال إن ابنه نقل إليه فيجد آمر السجن من القوميين، فقال متداركا:

لا أعرف من هو الضابط الخفير في العيد عسى أن يكون ابن حلال!

وفي يوم العيد نهضت مبكرا.... أدرت المذياع.. وانتظرت البدء بالصلاة ثم انطلقت إلى معسكر الرشيد.. يدي خاوية

---

١٧ - في هذا الحوار الموجز تلميح إلى اختلاف فقهي فعلى الرغم من أن حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم رفعت الظلم والحيف عن الشيعة إلا أن الدولة تلتزم خلال الأعياد بفتوى قاضي بغداد إذ المذهب الحنفي هو الرسمي في العراق، في حين تتبع الأغلبية المذهب الجعفري الذي غالبا ما يختلف فقهاؤه في توقيت يوم العيد عن التوقيت الرسمي لدى الحكومة في بغداد.

من أي شيء.. لا هدية ولا طعام.. ليس في بالي أيّ شيء سوى مقابلة أخي كي أعود إلى البيت فأزف البشرى إلى أمي.. سأسبق أبي.. محاولة إن نجحت عدت مزهوا وإن أخفقت احتفظت بها لنفسي.. فصعدت حافلة صغيرة.. وأصبحت بعد دقائق في اليرموك..

قَبْل عيد الأضحى ضربت من عاهرات.. فماذا يحدث الآن في صبيحة عيد الفطر؟

مغامرة تقذف بي في حضن أخرى...

أحيانا حسن الحظ لا المصادفة التي تسيرنا.. منزل العقيد أمامي.. وعند الواجهة خيمة قديمة فيها ثلاثة جنود، وعلى مقربة منها مجموعة من الوجهاء.. ملابس جديدة.. جلابيات.. كوفية.. عقال.. سروال.. ولهجة بعضها غريب على مسامعي.. أحد الجنود في الخيمة يسألني:

ماذا تريد؟

جئت للسلام على سيادة العقيد مهنئا بالعيد أيامكم سعيدة!

قال الجندي الأقدم الذي جلس على طاولة:

دعه هذا من وفد عشيرة العقيد المهنئين بالعيد!

لم ألتفت كي لا أثير شكوك الحراس.. اتجهت إلى حيث الحشد.. شيء ما في داخلي.. شيء لم أستطع كبح جماحه..

رغبة دفعتني إلى أن أندس مع هؤلاء.. التحق بهم فلا ألفت نظر الحرس، فاختلط الأمر على الجميع.. كل يظنني مع أحدهم.. ولا أحد يسأل من أنا.. وأظن بعضهم شك في أنني من أقارب آمر المعسكر أو عاملا في بيته.. دخلت واتخذت مكاني على كرسي طرف صالة الاستقبال قرب الباب.. تهنئة ومصافحات كان سيادة العقيد نفسه بروبه الحرير اللماع يستقبل ضيوفه ويوزع عليهم صينية الجكليت. مجاملات نسمعها في كل يوم.. في حين كنت منبهرا بحديث العقيد الرزن وشخصيته القوية وهيبته.. حلم رأيت فيه هاني يوم تخرّج ويوم ذهبنا معه إلى البصرة.. اختصرنا حياته العسكرية بالأحلام فأصبح زعيما في رتبة عبد الكريم قاسم وها أنا أتحين فرصة لزيارته في السجن، وماهي إلا دقائق حتى نهض كبير الزائرين فنهض الجميع ثم خرجوا والعقيد يبسط يده نحو الباب.. تلاشوا تماما وبقيت واقفا، فجلس ثم تطلع في المكتب ونظر إليّ مستغربا، وراح يسألني بلطف:

لماذا لم تغادر مع أهلك!

سيدي إنهم ليسوا أهلي أنا أنا...

طيب طيب ونهض من مكانه متجها إلي فخلت أنه يهمّ بضربي فانفجرت باكيا:

طيب طيب أليس عيبا.. لا تبك أنت رجل والبكاء عيب

للرجال...

ووضع يده على كتفي وسار معي إلى الطاولة العريضة حيث يجلس وواصل:

أنت ضيفي. عيب نحن عرب نكرم الضيف فكيف وأنت جئت إليّ في العيد!

بقيت صامتا لحظة من هول الصدمة. إني أمام عقيد ولابد أن يكون هناك صمت بعد الدموع:

أنت شجاع.. صبي شجاع والعلامة على ذلك وجودك معي في بيتي وحديثك لي أتحب أن تشرب شيئا؟

لا سيدي شكرا.

إذن كفّ عن ذلك السلوك الذي لا يليق بك وحدثني حديث رجل لرجل"ووضع يده على كتفي" ها أنت تعرف اسمي فتزورني في منزلي ولم أعرف اسمك؟

هشام سيدي

اسم جميل لصبي شجاع.. اطلب أي شيء على العين والرأس لاسيما نحن في يوم عيد!

أشاعت عباراته الدافئة الثقة في نفسي، كان يتحدث معي بلطف وبعض الحنان.. ربما أشفق علي ولعلّها طبيعته. قلت أستجمع شجاعتي:

سيدي أنا جئتك من أجل أخي الموقوف في معسكر

الرشيد!

فتأمل لحظة وزاغت عيناه نحو الرواق:

أخوك؟ من هو؟

هاني نجم!

ها أنت أخو هاني أنا أعرفه!

سيدي منذ أن اتهم بقتل المرحوم العقيد جلال وأنا مبتلى بعائلته لقد عدت بهم من البصرة إلى بغداد وتحملت كل العناء من أجلهم طفله وزوجته أمانة عندي وأقسم لك سيدي أن هاني لم يقتل أحدا ولو فعل تلك الفعلة لتبرّأنا منه جميعا الضابط الشريف لا يقتل ضابطا مثله..

لا أدري أهو الخوف أم الأمان في حضرة العقيد جعل لساني يسيل.. كأنني أخطب في الناس وأمنيتي أن يصبح هاني حرّا. نظرات سيادة العقيد.. صمته إصغاؤه لي ولساني الذي سال بمعسول الكلمات.. لمسة حنان وتطلع بوجهي قائلا:

طيب طيب..

سيدي أثناء الحادث كان هاني خارج المعسكر..

حسنا حسنا أعرف أعرف!

سيدي هل تطلق سراحه!

ورفع سماعة الهاتف.. ربما أنا في حلم.. وقتها سمعت من

الناس أن القوميين بدؤوا يلفقون التهم للضباط الشيوعيين واليساريين ومَنْ مشاعرهم مع الزعيم حتى إذا حكم بدران على أحدهم أطلق سراحه ضابط السجن القومي ذوالرتبة الكبيرة.. تصفية من نوع آخر.. رأيتها بعيني حتى صدقتها صغيرا.. ولمستها لمس الخبير يوم سمعت بمصرع العقيد النايف بلندن، هكذا هي الحياة، ثعالب ونمور.. دماء.. وموت.. حلمت بهاني زعيما غير أنني فرحت به اليوم فرحة عارمة.. كلي آذان مرهفة لحديث سيادة العقيد على الهاتف.. يتحدث عن هاني.. يطلب آمر السجن..

هكذا يدخل إنسان سجنا ويخرج منه بكلمة ما من مسؤول.. محكمة بدران... العقيد جلال.. النايف وأنا أعيش أدق التفاصيل.. والعقيد يضع السماعة ويلتفت إليّ:

خلاص يا ابني.. إكراما للعيد ولزيارتك أطلقت سراح أخيك ستجده قد جمع حاجياته وهو ينتظرك لتصحبه إلى البيت!

ولم يكد ينهي كلامه، حتى رحت أُهرع إلى معسكر الرشيد كمن أضاع عقدا من الألماس ثم تذكر أين نسيه، فانطلق بكل جوارحه عسى ألا يأتي أحد قبله فيلتقطه... جئت أقابل هاني.. وإذا بي أجده ينتظرني أمام باب السجن في معسكر الرشيد.

الجزء الرابع

المقبرة

استهلال

كادت المقبرة تنسيني ماحولي

لا يغيب عن ذهني ذلك قط

فالصمت هنا أبلغ

أصبحت حدا فاصلا بين الحياة والموت

والجميع يدخلون بعد إذني طبعا: الفقراء.. الأغنياء، العواهر، والشرفاء، المؤمنون والملحدون...

يأتون، فلا يغادرون، يقدمون إلى الصمت والهدوء وراحة البال..

والقحاب اللائي كدن يفترسنني ذات يوم هل أعرف واحدة منهن، لو عرفتها لما شمت بها.. أما الخوف فلا أشعر به لكنها الرهبة وهو الجلال!!!

١

أبو فرعون

لا أتهم المصادفة التي ألقت أبا فرعون في طريقي فعرفت منه الخير والشر ثم نسيت الشر تماما، وإن عشته لحظات أم ساعات ولا حيلة بيدي سوى التوسّل والرجاء.

لأستبق الأحداث.. فالزمن نفسه كان في مباراة معي.. مباراة قاسية كاد يقضي فيها على كلّ طموح لي في حين رحت بهدوئي وصمتي الذي تعلمته من الموتى- قبل أن أرافقهم- رحت أروضه فلا أخاف منه بل أتوقعه فلا يخطيء ظنّي به غالب الأحيان.

لذلك يمكن أن أقول إن الحكايات تبدو باهتة إذا قلبناها من النهاية إلى البداية ماعدا حكايتي التي بدأت في يوم ما من الختام فأعود إلى حكايتي السابقة بعد أن أغالب الوقت فأنجح من الصف الخامس الثانوي.. جاء ذلك اليوم لأجد نفسي حائزا على شهادة البكلوريا. كان حدثا ليس عاديا في عائلة اختفت البسمة من على وجوه أفرادها وخيّم الصمت عليها..

"كنا غرباء ونحن نعيش في دار واحدة. آهاتنا بدل أن تقرِّبنا من بعضنا باعدتنا فكلّ يتصوّر أن عذابه أمرّ من عذاب صاحبه، وعلى الرغم من كل المصاعب لم أرض لنفسي أن تُقتَلَ ابتسامتها.. أضحك وشيء في أعماقي ينضح بالحزن.. ومن يوم سجن هاني لم أرتض لنفسي أن تظفر بأيّ شيء تريد.. لم أدخل سينما، ولم أضحك مع أصدقاء أو أسامر أحدا.. ولم أتناول طعاما جيدا... فقد كانت صورة هاني السجين تلاحقني أينما حل فأراه حزينا.. مهضوما ووجهه يشع بالابتسام"

فلا عجب إذاً أن تقودني قدماي على مدى اليوم من مقبرة صغيرة تدعى البيت إلى مقبرة كبيرة فأجد الصمت يلاحقني وسط هيجان بغداد وعنفها..

لقد بدت مناسبة نجاحي باهتة في بيت مثل بيتنا مكبّلٍ بالحزن لتقذف بي فيما بعد لمكان أشدّ صمتا من البيت..

لا فرح ..

لا زغاريد...

لا كؤوس عصير تدار على الزائرين من الجيران.. قد يتلاقى عرس وجنازة في طريق ما فيصمت المحتفلون بالعرس إجلالا للجنازة.. ثم يعودون للصخب.. أما السكون فقد أطبق على عائلتنا تماما.. أمي التي تخرج عن صمتها بسعال

متتالٍ يكاد يهشّم صدرها فإذا ما نطقت سألت أبي عن موعد الزياة لسجن الكوت حيث يقبع أخي.. ورؤياه التي أصبحت مجرد أمنية من الأماني.. بتول تحرق نفسها ولا تشكو.. وتكاد الكنة تنفجر كبركان من الغضب والحزن والحنق والآلام.. ونحن جميعا صرعى الوجد والشوق والعذاب ..

في مثل هذه الظروف قبضت على شهادة البكالوريا.. وكان أخي نعمان التحق بعدي بمعهد المعلمين. والحق كانت رغبته في المحاماة. كان يقول إنه يريد أن يدافع عن الفقراء والمظلومين لكنه سينصرف إلى التعليم ليخفف عني وعن أبي بعض الحمل ثم يواصل دراسته في المساء حتى ينهي كلية الحقوق..

وسألني أبي بماذا تفكّر الآن؟

إني متردد.. العمل أم الكليّة..؟

كان أبي يجد فينا طموحه، ومستقبلا قضاه في العسكرية تحقق ثم تهاوى باعتقال هاني.. كأني اقرؤ في عينيه نشوة المستقبل تنبعث من جديد.. خسرنا العسكرية فليكن لدينا بديل آخر.. الجامعة. قبل أن أجيب. قال نعمان:

يا أخي أنا الآن في طريقي إلى الوظيفة سأعمل معلما براتب أكثر من راتبك عندئذٍ تستطيع التفرغ!

وعاد والدي إلى الحديث مرة أخرى:

قدّم للجامعة ولا تضيّع الفرصة أما الرزق فعلى الله والبركة براتبي التقاعدي وراتب نعمان!

الشيخ الوالد يعني البيت كله.. حين ينطق يعني أن البيت جميعه نطق.. هل يستطيع هذا الشيخ أن يوفر للعائلة ماتقتات به أم تراه يكابر ليراني في أحسن وضع.. فتأملت قليلا وقد خطرت بذهني فكرة ما:

وَلِم لا أبقى في العمل وأسجل في الكليّة.

قال نعمان:

سجل حتى إن ضبطوك في العمل فإنهم سيخيرونك بين الكلية والوظيفة!

قال أبي:

أية كلية تختار.

سأحاول في الحقوق.

كل ما أعرفه أنك تحبّ اللغة والأدب.

حقا لكن كلّيّة الحقوق لا تضع قوانين صارمة على الحضور والمحاضرات تعتمد على الحفظ وأنا منذ الثانوية اعتمدت على الذاكرة.. يمكنني أن أحضر بعض المحاضرات.

فابتسم نعمان كأنه يسترق فرصة للفرح:

طيب الحقوق كليتي المفضّلة قد أراك هناك بعد سنة...

غير أني - حالما انكشف أمري في العمل- اضطررت، بعد أيام، إلى أن أسحب أوراقي من كليّة الحقوق.. بضعة أيّام فقط ثمّ راودني خاطر آخر: هل أقضي عمري موظفا في البلديّة هذه الحياة واسعة كبيرة تشبه بالونا ضخما يسع العالم كله ومن العبث أن أعدم ثقبا في هذا البالون أضع أنفي فوقه.. لأجرّب مرّة أخرى ليس هناك من شيء في هذه الحياة يمكن أن نقول عنه هذا أحبه وذاك لا أرغب فيه.. قد نلتقي بشيء ما على مضض ثم نتآلف معه..كما تآلفت مع سجن أخي وصمت البيت، مرض أمي وانهيار أختي بتول، وكما ألفت الانكسار على وجوه إخوتي، وعصبية زوجة أخي التي بدأت تضيق ذرعا بكل ماحولها، وأحيانا تترك المنزل وتذهب إلى منزل أهلها فيضطر أبي أو أحد إخوتي إلى إرجاعها...

ومثلما ألفت جو المنزل الغريب...

والمظاهرات العجيبة التي أصادفها في أثناء توجهي إلى عملي..

ووجوه الباعة الذين يلملمون أشياءهم ويفرون حالما يلمحوننا ..

جمعت أوراقي وذهبت إلى كلّيّة الحقوق، وعملت المحال

على أن أنقل عملي إلى الوجبة المسائيّة، فاضطررت إلى أن أهرب من العمل فألتحق بالكليّة.. ويبدو أن حبل الكذب قصير دائما إذ لم يمض عليّ سوى أسبوع حتى انكشف أمري فأصبحت متلبسا بجرم كبير.. ومازالت كلمات المفتش "أبو فرعون" ترنّ في أذني يوم صرخ بوجهي:

إسمع يا هشام لا تتصور نفسك في روضة أطفال.. نحن لسنا روضة.. حضانة.. فإما العمل وإما الجامعة وأنت حر في الاختيار.

ليس هذا فحسب بل عزز غضبه ببعض الإهانات ثم صرخ فيّ: أخرج.. أخرج!

وبين الأمل واليأس والخوف ثم الجرأة غامرت من جديد...

هذه المرّة صارت وجهتي إلى كليّة التجارة!! وماهو إلا أسبوع حتّى ألقي عليّ القبض وفعل المسؤولون بي هذه المرّة مافعلوا في المرّة الأولى وكادوا يطردونني من العمل، لولا أني أعلنت التوبة وأقسمت بأغلظ الأيمان أن لا تطأ رجلاي أرض الكلية.

ومرت الأيام سقيمة باهتة كوجوه هؤلاء الذين تحكّموا في مصيري، كرهتهم، وكرهت البلديّة، وكرهت العمل بل وكرهت الراتب الذي كنت أتقاضاه من الدائرة.. كرهت كل شيء، إلا أنني لم أكره الدراسة والبحث

وحبهما...

أما الفكرة فظلّت تراودني.. تحثُّني.. تغريني أن أعاود الكرّة من جديد..

لم تعجلت فرافقت الأموات قبل الأحياء؟

غالبا ما أسأل نفسي فأجد أن هناك أكثر من جواب وحين أختار أيا منها أنسى الجميع وأحاول أن أقنع نفسي أني فعلت ذلك فكدت أضحي بالعمل من أجل الدراسة...

مهما يكن عليّ أن أعود إلى وظيفتي التي لم أكد أصدق أني عدت إليها فبقي راتبي وبقي قوت العائلة حتى أصبح أخي نعمان معلما فساورني والعائلة شعور بالراحة كأن بعض ثقل عظيم أزيح عن الصدور!

ولم يتخل عني الهاجس...

قد تكون روح التمرد، والرغبة التي تدفعنا للمغامرة دفعا فلا نفكر بعاقبة الأمور بعدها قطّ.

هذه المرة حملت أوراقي ورحت قاصدا قسم اللغة في كلية الآداب، كما يفعل اللصوص تماما، ويبدو أن القلق دفعني إلى أن أسجل في قسم الفلسفة ثم تمرّدت عليه فتحوّلت إلى اللغة العربية.. تلك الهجرة الدائمة الظاهرة الخفيّة.. أكثر من مدرسة في عام واحد.. وأكثر من كليّة في بضعة أسابيع..

وكنت أشاهد في الكليّة عالما آخر يختلف عما ألفته في بيتنا والحارة ودائرة السنك والشارع... الجامعة ذلك الحرم الكبير الصغير.. أشبه بقطعة من الأرض خارج البلد المضطرب الهائج..

لامظاهرات ولاصخب ولاعنف...

عالم رقيق ناعم مثل قماش من قطيفة ذات لون أرجوانيّ...

بدأت أدخل ذلك العالم الجميل في خلسة من عيون المفتشين، رحت أضع كتبي في كيس عادي لئلا ألفت الأنظار.. أية فرصة تلوح لي أغادر الشارع فأنطلق نحو الكليّة.. أتبارى مع الوقت حتى جاء يوم اكتشف فيه حيلتي أبو فرعون.. المفتش الذي قضى في الخدمة سنوات طويلة.. كان يقول عن نفسه حين يحاسب أحدا لاتظنّ أن الفراعين كلهم ظلمة.. نعم هناك فيهم المؤمنون.. والكافرون.. الفرعون ملك.. وأنا ملك الشارع أريده نظيفا من كل شيء.. كنت مزهوا بكتبي وأنا أسير مع الطلبة عائدا من الكليّة حين التقاني...

هذا اللولب المتحرك.. لايهمّه أن يستقل دراجة فيلاحق المراقبين والعمال المنظفين.. أو يقود سيارة من سيارات البلدية.. لايعجز ولا يكل أو يملّ.. لا يتعب وأظنه لن يتعب

حتى وإن كبر وشاخ وبلغ من العمر عتيا...

فجأة على حين غرّة وقف أمامي وجها لوجه.. نظراته الحادة.. وجهه المتجهم.. صوته الخشن.. تراجعت قليلا ابتعد عن مجموعة الطلبة ووقفت مبهور الأنفاس.. خلتني طيرا في الهواء.. عصفورا يداهمه نسر كاسر.. حمل وديع التقطه من المرعى ذئب.. فرعون غاضب.. قال لي بتشفٍ لن أفعل لك إيّ شيء.. هذه ثالث مرة.. المدير سيقول كلمته فيك...

لا رجاء ينفع. ولا توسل معه.. أعرض عن أن يسمعني، وقادني إلى المدير، فدخلت ورجلاي تتؤان بي من الخوف والرهبة والإعياء...

ماذا أقول لسيادة المدير.. وأين هو محمد شرارة.. حسان الملاحظ الذي يشرق وجهه كلما قابلني.. السيد المدير جالس خلف مكتبه الفخم.. أنا أقف أمام شخص أقل من الوزير بدرجة.. قلبي يخفق ورجلاي ترتجفان.. يا إلهي.. عند الشباك ذي الستارتين المسدلتين يقف أبو فرعون كما يقف الجندي أمام سيده الآمر منتصرا..

سيدي هذه المرة الثالثة التي نضبطه فيها يترك شغله مرتين من قبلي والمرة الأولى من قبل مفتش آخر.

فنظر إليّ المدير بعينين جاحظتين قرأت فيهما كل سنوات خدمته ورأيت فيهما ماتوعد به من عقاب صارم.

كان فمه يكشر عن غضب مثل وجهه:

استهتار.. ضحك على الدائرة..

لكني لم أعد احتمل.. لا شماتة أبي فرعون المنتصر ولا غضب المدير الهائج العارم الذي برق في عينيه أكثر من صوته ووجهه.. فبدأت أبكي.. أدركت أني لن أتخلى عن البكاء سلاحي الذي لجأت إليه وأنا صبي.. أستعيد دقائق في بيت العقيد.. أبكي وأنا طالب في الجامعة.. بكيت بحرقة .. ارتفع بكائي إل شهيق متقطع.. فقلت وأنا ألهث لأستفز ضميره:

سيدي عائلة كبيرة تعتمد على العشرين دينارا التي آخذها.. راتبي.. كنت أفكر أن أنتقل إلى العمل مع مجموعة المساء.. سيدي أرجوك.. أنت صاحب عائلة.. وربما إذا نجحت وحصلت على البكالوريوس يتحسن راتبي.. أرجوك...

كان بكائي يتقطع.. يخفت ثم يعود.. وتوسلي ورجائي يقطعان على المدير كلامه.. لا أعرف التمثيل، فكل شيء انبثق عن خوف من أعماقي.. كنت بحاجة إلى أن أبكي منذ زمن حتى سنحت لي الفرصة المناسبة بعيدا عن بيتنا.. عن أبي وأمي وأخوتي..

فهدأت عينا المدير وسكنت ملامحه، تحرك فيه الضمير

لدموعي وتوسلي غير أن وجهه ظل متجهما كأنه انفصل عن عينيه وفمه الذي مازال يوحي بالاشمئزاز، فالتفت إلى أبي فرعون قائلا:

دعه يعمل في مقبرة الغزالي بعد الظهر..

فتقدم أبو فرعون منّي خطوة وهو يجيب:

نعم أستاذ هل من شيء آخر!

لا تنس أن توصي مسؤوله في وجبة المساء أن لا يتهاون معه قط!

نعم أستاذ!

وقبل أن نغادر عقب المدير مرة أخرى:

في الوقت نفسه عاقبه على تسيبه بخصم ثمانية أيام من راتبه.

وخرجت من المدير غير مصدق أني نجوت.. أنا العصفور الضعيف صغير الحجم وقفت بين مخالب نسر ونجوت.. كادت الفرحة تنسيني تماما العقوبة الجديدة غير أن فرحتي بالمقبرة وعملي الجديد بعد الظهر.. وَتَراقُص العشرين دينارا في جيبي .. نجوت ونجا الراتب..

كلّ ذلك أنساني عقوبة الأيام الثمانية ..فقد كنت مزهوا حقا بحلمي الجديد...

٢

انقلاب

راحت السنوات تمر من دونما طعم..

وإن خرج هاني من السجن وانتقل ليعيش في بيت لايبعد عن بيتنا كثيرا، عمل صباغا، وفي البناء ومقاول، ورزق بأطفال، لكن...

في المقبرة جرت الأمور على خير مايرام، كنت أرى فأسمع، وأسمع فأبصر بعيون صقر يشاهد من علو، فلم أعد أخشى الموت، رافقته في فورة الشباب وسكنت إليه نفسي، عشت بين عالمين متناقضين الجامعة بجوها البنفسجي البراق، وعطورها، وحسناواتها، وبعض التهتك الذي يتشظى نحوي.. النظرات والحسرات، والمناجاة بين طالبات وجدن في الجو الجامعي حريتهن فاندفعن للحب والهمسات والصحبة من دونما حدود، وبين جوّ المقبرة الهادىء الساكن الذي أطلّ عليه.

أما الشارع فقد ازداد غليانا. .مع ذلك فلم أكن لأحس به، تخلصت برفقتي مع الموتى من كل صخب.. في الجامعة

أدركت زيف العالم: الجمال، والعطور التي تلامس رئتيّ.. أحمر شفاه وصبغ أظافر.. بودر.. وجوه تلمع.. كم رأيت من إعلان في الشارع.. وكم شممت من عطر.. وربما منيت نفسي بأكلة ما فخشيت على جيبي.. لن تموت إذا اشتهيت شيئا ولم تأكله.. قد يعجبك عطر تستافه من بعيد.. ماعليك إلا أن تنسى.. لو لم يكن عند هاني نقود لما وضع في جيبي خمسين دينارا ضاعت من أجل محام عجز أن يفعل شيئا.. أقسم أني لن أكون عبدا للنقود لكن عليّ أن أروّض معدتي وأنفي وبصري.. لدي عالمان أليفان: الجامعة والمقبرة: يطلّ الصباح فأمتطي درّاجتي الى الكليّة حيث الحياة تعج بالعطور وتنبض بالمشاعر..البذخ والبطر والترف.. الجمال الناطق الحي.. كان عدد الطالبات أكثر من الطلاب.. نادرا ما أتحدث مع زملائي في الجامعة فأراهم مشغولين بصديقاتهم ودروسهم فكيف تقيم أنت القادم من عالم الأموات جسر محبة مع الأحياء.. وتديرحديثا ما وفي بال الجميع أن الموتى لا يتكلمون.. أنا نفسي أظنني ميتا يتحدث إلى أحياء فأقتنع أنهم على علم بأني ميت يخاطبهم فينصتون إليّ دونما رغبة في الأخذ والردّ معي.. ويحدثني اصدقائي سكنة المقبرة الدائمون فأنصت لهم باهتمام وبين العالمين الهادئين الساحرين فاصل غريب صاخب.. بحر متلاطم..

للشارع الذي ألتقيه في طريقي من البيت إلى الجامعة والمقبرة طعم آخر.. لايريد أن يصمت مثل الموتى ولا أن يعبق بالعطر والنظرات والحسرات كطلاب عشاق وطالبات.. مسحور أنا بعبق الجامعة وخائف من الشارع.. مظاهرات.. يسقط.. يعيش.. إضراب.. صدامات.. وهاني مشغول بعائلته كيف يوفر لها الخبز، ولا عزاء لي إلا المقبرة.. أدخل أنتظر صديقي الميت.. ما اشتهيته من طعام تعافه نفسي.. وأنا أنتظر قدوم أصدقائي الصامتين.. أدون اسم الميت وسبب الوفاة.. لماذا مات.. كلنا نموت.. أخرج من ذهني كلّ الفتيات ممن ألتقيهنّ في الجامعة، ومن ذاكرتي العطور. "الريماج" لم يعد له مكان "الكلامور" بعيد عنيّ "بروت" عطر الشباب المفضل.." أولد سبايس أفتر شيف"للرجل الأنيق.. وصخب الشارع يطويه الصمت الأبدي: صديقك الجديد هذه المرة مات شابا مرّ على زواجه أقل من عشرة أيام. للأسف مات بحادث سيارة.. هناك ميت.. أين دفن العقيد جلال ياترى؟ ذلك ميت قتيل سقط بعيدا عني فتحملت وزره وما زلت أحمل ديته.. قد لا أجده في هذه المقبرة ولن أتعب نفسي في السؤال إن كان من رعاياي أم لا.. لن أثير علامة استفهام عني.. لعلّه دفن في مقبرة الزبير أو في مقبرة الشهداء.. واليوم التحقت الى هذا المكان حاجة ماتت في السبعين من عمرها

وربما يأتي غدا صبي أو طفل.. سجل اسم الميت فقط.. لا علاقة لك فيما بعد بالأمر هناك من يصحبه إلى القبر.. أما أنا فيحق لي التجول بين القبور والتمعن بالصمت المطبق كأن المقبرة معزولة عن بغداد بصمتها الذي قليلا مايبعث في الخوف والقلق خلال الليل، وربما يتحوّل إلى كابوسٍ مزعجٍ بل لا وقت لي للحلم أحيانا. أستيقظ صباحا فأتوجه إلى الجامعة.. أدمن العطور، والهمسات، والمحاضرات.. فتتفتح شهيتي على طعام أحلم به.. وألتحق بالمقبرة الساعة الثانية حيث تعاف نفسي الأكل.. أعود إلى البيت منهكا الساعة العاشرة ليلا.. الشارع يكاد يكون فارغا.. صامتا فأطلّ على بيتنا.. أراه ساكنا هادئا.. ويقع بصري على إخوتي بقاماتهم الممدة على الأرض كالأعمدة لكلٍّ منهم أحلامه ورؤاه.. لقد كان البيت مقبرة ثانية حقّا بل أمر من المقبرة فالأموات هنا يتكلمون...

وما أقسى اللسان أحيانا..

هكذا استمرت الحال.. الكلية.. المقبرة البيت.. الليل.. النهار.. حتى أطلّ يوم غريب الملامح، وقد كان ذلك يوم جمعة.. إعتدت أن أتأخر في النهوض من فراشي.. فأستعيد بعض نشاطٍ أفرِّط به خلال أسبوع.. أما أبي فمازال بالرغم تقدّمه في السنّ مواضبا على النهوض للصلاة مبكرا ثم

يعود إلى النوم ثانية.. تهادت إليّ حركة ما سرعان ما تبينتها حركة طفلي هاني وصوت زوجته، أربع سنوات مرّت على إطلاق سراحه وهو يزورنا في بعض الجمع والأعياد غير أن دخوله علينا هذه المرة لاح لي بشكل غريب.. فخرجت إلى الصالون.. وسمعته يقول بصوت مضطرب:

لا تغفلوا لحظة عن المذياع.. تابعوا الأخبار والبلاغات...

وتبينت الوجوم على الوجوه.. ملامح صفراء خالطها حزن وقلق.. ابن هاني الأكبر.. وصغيره الآخر الرضيع.. وزوجته التي حشرت نفسها بين بتول وأمي.. كان نعمان وكامل يقفان حول أخيهما كأنهما يخشيان عليه من أن يضيع تلك اللحظة.. تكدّس الجميع في الصالون.. خلت أنّ زلزالا ما ضرب بيتنا:

قلت وما زال النوم ينتفض من عينيّ:

خير خير إن شاء الله!

فردّ عليّ هاني:

انقلاب على الزعيم...

واستطرد مطمئنا الجميع:

ليت لدينا جهاز تلفاز.. الانقلابيون لم يحتلوا محطة التلفزيون!

وهنا اندفعت زوجته توجِّه الحديث لأمي قائلة:

لا تتركيه يخرج ياخالة أرجوك فقد فعلها وذهب إلى الدفاع وبقيت مع الطفلين وحدي!

فقال أبي بشيء من العصبية:

أين تذهب والرصاص يتناثر في الشارع.

كان هاني يرد بحدّة:

قلت لكم لن أخرج حتى نسمع نداء من الزعيم يطلبنا" وصمت لحظة ثم واصل":

ياجماعة حالما سمعت بيان الانقلابيين من المذياع خرجت من البيت قاصدا وزارة الدفاع هناك وجدت مجموعة من الضباط المفصولين والمطرودين مثلي فخرج إلينا الزعيم وسألنا عن مجيئنا فأجبناه إننا جئنا لنقاتل معه فابتسم وقال اذهبوا إلى منازلكم واطمئنوا فهؤلاء مجموعة متمردين سنعالج وضعهم.. كان يحيينا ويلوح لنا بيده..

هكذا تصوّر هاني الزعيم، وتصورناه معه.. كان يبتسم في مواقف كثيرة تتطلب العبوس فلم أكد أصدق أنه يعرف الغضب، أما أبي الذي جلس في واجهة الصالون وأخذ يداعب شعر حفيده ماجد، فقد قال:

أي يا ابني.. أكاد أشك. أنت تقول الزعيم طمأنكم لكن ماهذه البلاغات التي يبثها المذياع لمصلحة الانقلاب؟

ياأبي لم ينجح الإنقلابيون إلا في احتلال محطة الإذاعة لو

كان عندنا تلفاز لكن نذرا عليّ إذا ما استقرت الأمور لأشتري اثنين واحدا لنا وآخر لكم.

وقالت بتول بثقة:

ستعود إلى رتبتك وستعوضك الدولة عن تلك السنوات "ربّما كانت تحلم أكثر فهي التي لا تتمالك نفسها بعد الحادث حين ترى ضابطا يتبختر في الشارع فتهمل عيناها بالدموع": إن شاء الله نقيب أو رائد!

راحت بيانات الإذاعة تصم آذاننا بحدتها وقسوتها.. عرفنا في هذا اليوم نشيد الله أكبر.. صدر بلاغ.. والنشيد نفسه يعود.. إذاعة بيان آخر وانطلاق النشيد بعده كأنه يلعلع مثل الرصاص.. توقعنا أن تمر ساعتان أو ثلاث فتتوجه قوة ما من الجيش إلى محطة الإذاعة تستعيدها من الانقلابيين.. وما بين القلق والخوف والتشتت وصمت كامل وحيرة نعمان الذي علا وجهه الشحوب أكثر من أيّ منا مرت فترة الظهيرة.. عشعش النشيد وموسيقاه الحادة في بيتنا، والمذياع يزيدنا قلقا.. انتقل ماجد من جده إلى أمه ثمّ رافق كامل.. ولاعبه محمد، وانشغلت النسوة عن إعداد الطعام بالمحنة.. كنت أرى هاني يجتاز باحة البيت ذهابا وإيابا يفكر ويتساءل: معقول؟ حفنة انقلابيين يبقون في المحطة إلى الآن ثم يجيب أبي أو يجيب نفسه: ربما الحكومة لاتفكر بسفك الدماء

بل تتركهم حتى يتعبوا فيسلموا أنفسهم.. عمل جبناء...

وما بين قلق هاني وسكون أمي وصدمتها ودعائها أن تكون هناء مع زوجها وطفلها الصغير في البيت حتى كدت أزعق: أين تذهب في هذا اليوم، وبين تعلق الصغير ماجد بجده وقلق أخي الذي عكف على المذياع وأحيانا يقطع الصالة ذهابا وإيابا منتظرا بلاغا من الزعيم يطلب فيه الضباط القدامى بالقدوم إلى الدفاع أو دخول الزعيم الإذاعة يذيع بيان المنتصر المهاب الذي لابدّ أن يتخلّى عن اللين.. بين كل ذلك حدثت المفاجأة...

كانت الشمس تميل إلى الغروب وهاني مشرئب بعنقه نحو المذياع الذي عاود بث نشيد أللّه أكبر، وهو يقول:

لتكن عبرة للزعيم... واللّه يابن كيفية رحم اللّه روح والدتك الطاهرة كفى رحمة وإحسانا كفى الرحمة فوق القانون كفى عفا اللّه عمّا سلف هذه المرة دع المهدواي ينفذ فيهم حكم الموت!!!

وإذا بنا نسمع طرقات مرعبة على الباب وركلات.. وصلية رشاش وزعقة عالية: افتحوا أيها المارقون إفتحوا.. هرعت بتول إلى الممر وسألت قبل أن تفتح الباب: ماذا؟ ماذا تريد؟

فرد صوت خشن:

إفتحوا الباب أيها المارقون؟ أين ابنكم المتمرّد؟

عنئذ رأيت هاني ينطلق من الصالة نحوباب البيت الخلفي، مرّ من أمامي مثل غزال مذعور، وأظنه قفز إلى سياج الجيران.. بتول تراجعت مذعورة نحو المطبخ من دون أن تفتح الباب الذي ترنح تحت الركلات فانفرج مصراعه، اثنان ثلاثة أربعة خمسة... ستة من حملة الرشاشات.. ودخل مسلحان الصالة فسمعنا في الخارج صلية رشاش ظنتها أمي انصبت على هاني من مسلحين في الشارع فصرخت صرخة مدوية، وسقطت مغشيا عليها.. في حين كان أبي يضم ماجد إلى صدره...

عيناي تحومان على الوجوه..

وجه نعمان أصفر كالزعفران خائف لكنه لم يبك..

محمد تمثال واجم تلوح الصفرة على وجهه

وكامل مرتبك شفتاه تتحركان بكلمات مبهمة...

عباس لاح الذبول على شفتيه كما لو أنهكه العطش والحرّ..

والحرس القومي ببيتنا يعبثون...

أشباح.. تتحرك وسيدة مغمى عليها بتول وزوجة أخي مرعوبتان وفي بالنا أن هاني سقط بصلية رشاش..

كل شيء محتمل فكيف تعود أمي إلى وعيها، أما

والدي الذي مازال يضم ماجد إلى صدره فقد وجه كلامه إلى صاحب الصوت الأجش:

إبني مالنا ولهاني.. لقد ترك عائلته عندنا منذ الصباح ثمّ خرج غير أنّه لم يعد.. أنت أيضا عندك أم وأخوات.. أتقبل أن يفعل أحد بأهلك مثل هذا؟

المهم.. سنقبض عليه لن يكون قادرا على أن يتخفى مدى الحياة!

قال عبارته، وترك البيت هو وجماعته مقلوبا.. متناثرا.. كانوا يظنون أن هاني يمكن أن يكون اختفى في أدق الأشياء.. قدور الطبخ.. الملاعق.. أغطية الفراش.. الكراسي.. المناديل.. الخزانات.. كتب كامل ونعمان أو كراسات محمد وعباس..

إبر الخياطة وثقوب الأقفال...

وكأننا حين خرجوا تنفسنا الصعداء فانتبهنا إلى أمي التي كانت أنفاسها تتهدج بين الموت والحياة.

٣

سجن خفيّ

مرّ أكثر من أسبوع على الانقلاب ووالدتي بين الحياة والموت.. صدمة أفقدتها النطق فجعلتها طريحة الفراش، كلنا سمعنا صوت إطلاق نار، وصلية رشاشات، فظننا أن المهاجمين أردوا هاني قتيلا.. كان يقفز مع اعتراض بتول الممر، ويمر كالبرق باتجاه المطبخ ليخرج من الباب الخلفي المطلّ على سياج الجيران.. جارنا الطيب يؤكد أنه لم ير أحدا ولو سقط أخي جريحا لربما أسروه، لعله جرى بمحاذاة البيوت فقادته قدماه إلى شارع آخر.. لابد أن يكونوا قتلوه وأخفوا أمره شأنهم مع أسرى آخرين.. أنا أيضا بين الحياة والموت.. أرى وجوها شتى صفراء تكاد تنطق بصفرتها وسكونها.. فأعرف أن الموت لم يكن كما يحسبه الناس أمرا مهولا إذ طوال اليوم أطالع كتابين: عنفوان الجامعة الفتي البراق، وصمت المقبرة.. في ساعات أقرؤهما معا.. أصحب كتبي المراجع إلى حيث الأموات كأنني أود أن أدفن الأحياء.. أقرؤ الإثنين.. أجلب معي

الأحياء والأموات ليشاهدوا معي سكان القبور.. طه حسين.. شوقي ضيف، وكل المشاهير.. امرؤ القيس.. المتنبي.. المعري.. الجواهري.. سحبان وائل.. الخنساء.. كل أصدقائي في الجامعة الذين أحبهم ومن لا أحبه.. اعتدت أن أرى الموت غير أني كرهت أن أسمع به ومابين عينيّ وأذنيّ مسافة قصيرة.. حتّى خرجت مرهقا الساعة العاشرة.. سأجد البيت كما هو.. أحياء أمواتا.. كالمقبرة التي أجلس ببابها.. أسأل نفسي: الانقلاب يقتل كل يوم ولايكلّ أو يملّ ومعدل الموتى مازال هو هو.. مازلت واقفا بباب المقبرة كما يقف رضوان بباب الجنة فأين من قتلهم الانقلابيون؟ ياترى مامصير قحاب الميدان اللائي ثرن بوجهي ذات يوم فأشبعنني ركلا وصفعا وخمشا كالقطط المسعورة؟ وها أنا ذا أعبر بدراجتي الشوارع، فأرى الدبابات والمصفحات تجوب الطرقات وثكنات الحرس القومي يوقفون الناس.. ويلفون الدروب وهم يحملون رشاشات بور سعيد.. يساورني قلق ما فاتحسس جيبي أتأكد أني لم أنس بطاقتي الشخصية في البيت فلربما أوقفني حاجز يسألني إلى أيةجهد اقصد، وأسأل أين هاني؟ أين جثته؟ أ ربما جارنا الطيب يخاف أن يفشي السر.. بعد أن سقط هاني في بيته التقطه المهاجمون.. سمعنا أنهم رموا جثة الزعيم في النهر.. وألقوا بجثة وصفي طاهر وضباط

آخرين في المزارع والبساتين لتأكلها الكلاب.. وها أنا أجتاز بدراجتي مقرا للحرس القومي، فأصل البيت سالما.. موتى أحياء.. بتول محمرة العينيين وأمي تحترق من حزنها.. تتحرك كأنها خشبة.. وتقضي معظم الوقت طريحة الفراش زوجة أخي لا تتوقف عن النحيب.. أما الأولاد فلا أدري متى رقدوا وفي أي مكان هم.. تلك الليلة قابلني أبي بلهجة باكية.. كان من المحال أن يبكي.. العسكري المحترف.. الشيخ الذي يخجل من البكاء تترقرق الدموع في عينيه ثم ينهار في نحيب عال.. وجمت خلت أن الحرس القومي سلمونا جثة هاني وأنها مرمية في مكان ما.. أسندت يدي إلى مصراع الباب أتحامل، فتوقف أبي عن النحيب، وتمتم مع نفسه:

لاحول ولا قوة... والتفت إلي وهو يمسح أرنبة أنفه بظاهر يده ويقول:

إلحق أخوك نعمان اعتقله الحرس القومي...

ماذا؟ معقول؟ السبب؟

قلت ذلك وأنا أنفث الهواء والدهشة تتلاعب بأفكاري وهواجسي.. أجد نفسي بين شك وخوف، ويبدو أن مجيء الحرس القومي إلى البيت واعتقالهم نعمان هزّ أمي هزة عنيفة فجعلها تستفيق من غيبوبتها.. فتحركت ونطقت بعض الكلمات استعاذت بالله.. ومشت في الصالة تودع

نعمان ولا تدري أين يذهبون به.. هل أخذوه رهينة حتى يعود إليهم هاني؟

هكذا ساورتني الوساوس، وسقطت عيني على بتول وكامل اللذين تكوَّرا قرب غرفة أمي كما لو كان أحدهما خائفا أن يضيع من الآخر، ولمحت شبح عباس جنب ابني هاني. قلت متسائلا لا أصدق ماجرى:

كيف حدث هذا؟

فقال أبي:

كانت الساعة السابعة والنصف وكنت أهم بالصلاة عندما داهم مسلحون من الحرس القومي، وسألوا عن هاني الهارب ثمّ وضعوا فوهة الرشاشة خلف ظهر نعمان.. رجوتهم.. أولادي هذا مازال صبيا أنتم مثل أولادي فقاطعني أكثر من واحد ساخرا نحن نأنف أن نكون شيوعيين!

هل حقا ما أسمع.. نعمان شيوعي.. رفيق.. هواية جمع الطوابع.. من يا ترى لقنه مباديء ماركس.. لديه ثلاثة ألبومات طوابع.. دول لا أعرفها.. كان يسأل السائحين.. ويذهب إلى أسواق البضاعة القديمة لا ليقتني الكتب بل من أجل أن يعثر على طوابع.. في البصرة صادق تلميذا في المدرسة أبوه يعمل في الكويت.. كلما وصلت رسالة فرح بها.. ماذا فعلت يانعمان.. تعرف كيف تفصل الطابع عن

المظروف.. لو تمزق مثلث واحد لم يعد للطابع قيمة كنت تقول وأنت في منتهى النشوة، فكيف خدعتنا؟

وبقدر فرحي باستعادة أمي بعض صحتها.. راودني رعب لاعتقال نعمان زادني خوفا حنق الوالد وغضبه الذي ظل يكتمه حتى قدمت من المقبرة، فانفجر إلى بعض نحيب وزعيق بوجهي:

كل شيء قبلناه إلا الشيوعية.. الكفر بالله والعياذ بالله... ألم يسمع نعمان فتوى السيد الشيوعية كفر وإلحاد..[١٨] الكفر في بيتنا وقلة البركة يا هاني!

ومن أدراك يا أبي لعلها تهمة إنهم يريدون بهذه الطريقة أن ينتقموا من هاني فاتهموا نعمان بالشيوعية شأنهم مع كل معارضيهم.

حقا ليلتها لم أنم رأيت قسوة الوالد المتناهية عليّ أنا البريء وعلى نعمان لكني أعرف طيبة قلبه.. تقلبت في فراشي.. ولم أكد أغفو.. هل أصدّق؟ نعمان شيوعي..

١٨- بعد ازدياد المد الشيوعي في العراق أصدر زعيم الحوزة العلمية في النجف مرجع الشيعة الأعلى السيد محسن الحكيم عام ١٩٥٩ فتواه الشهيرة "الشيوعية كفر وإلحاد" مما سبب في مجازر جماعية ارتكبها البعثيون والقوميون بحق الشيوعيين على الرغم من أن الفتوى تبين فحوى الفكر الشيوعي ولا تدعو إلى قتل معتنقيه غير أن السياسيين استغلوها لمصلحتهم.

إعدام.. من خدعه؟ تهمه ستلاحقه أبد الآبدين.. صحيفة أعمال تُفتَح له في دائرة الأمن.. كلما حدث انقلاب استدعوه.. هذا إن لم ينفذ به حكم الموت.. حتى لو اعترف وأعلن براءته فإن الشبهة ستظل تلاحقه...

ومع غضب والدي...

ومع كل حنقه وسورته وكبريائه.. فإننا اتفقنا أن نحمل مرتبة نوم، ونذهب يوم غد إلى "العبيدي" حيث اعتاد الحرس القومي أن يرمي السجناء هناك، كان اليوم غائما ممطرا.. شباط وبرد بغداد.. والصقيع الذي يرتمي على وجوه الحدائق عند الفجر ويسدّ حنفيات المياه.. ولم يرغب أحد من سائقي سيارات الأجرة في أن يغامر ليحملنا.. مَنْ مِن السائقين يرغب أن يجلب على نفسه تهمة ما.. كان علينا أن نسير عشرين كيلومترا.. رحت معها أعد خطواتي.. ياهشام.. أيها الحاج.. ذلك مكان معروف يصله إما شرطي أو حرس قومي.. هؤلاء أولاد كلب سواق التاكسي.. جبناء..

- يا إبني لا تسب الناس إنهم يخافون على خبزتهم قبل رقابهم!

شعرت أني أسبق أبي وعلى كتفي مرتبة ثقيلة.. لن أدع الشيخ يحمل أي شيء.. بطانية.. فرشة نوم ووسادة.. أسبقه ثم أقف ألتقط أنفاسي.. فيجتازني خطوات بل كنت أتمنى أن

يتوارى أمامي حتى لا أبصره يترنح بخطواته الثقيلة الوئيدة فأحث خطاي ثانية لأسبقه مسافة.. وأنتظره يعبرني.. وقد أخذت ألهث.. وقطرات المطر تنساب من جبهتي على أنفاسي، فأحول فرشة النوم من على كتفي اليمنى إلى الكتف الأخرى:

العبيدي؟ هل تأخذنا إلى العبيدي؟

آسف يا عمي!

أولاد الكلب!

هشام يا ابني إحفظ لسانك!

أيّ سائق يتطلّع فينا يهرب حين يسمع العبيدي، التعب يثقلنا.. أرى الشيخ يلهث ويتوقف، فأصبر نفسي، أربع ساعات قضيناها في البرد تحت المطر.. نمشي ونقف.. أسبق الحاج الشيخ، أتركه يسبقني، كلّ أهل الموقوفين يتجهون إلى "العبيدي" يوم الحشر.. الهامات ترتفع صوب البناية السجن.. والعيون تتطلع، أما فراش النوم فقد أضحى مبللا، ولن يفيد نعمان بشيء، متى جاء هؤلاء لرؤية ذويهم، وفي أية ساعة مبكرة خرجوا.. مشهد يوحي كما لو أن البلد كلّه ذاهب للاعتقال أما أنا والشيخ فقد كنا نواجه حراسا أجلافا خشني الطباع حادي النظرات.. لكن على الرغم من توسلاتنا بهذا وذاك من الشرطة والحرس القومي فلم نفلح

في العثور على أثر لنعمان.. كان هناك ثقل كالجبل يجثم على صدري.. على كتفي فراش أثقله المطر.. وبين أضلاعي ثقل لايتزحزح.. لا أقدر أن أنقله من ضلع إلى آخر كما فعلت مع الفراش الذي قلبته مرارا بين كتفي.. هاني قتل برصاصة وأخفوا جسده كما أخفوا جثة الزعيم .. فهل قتلوا نعمان ورموه في مكان بعيد...

ها أنا أفقد أخوين في أقلّ من شهر!!

كان ذهني يتشتّت بعيدا.. يتناثر ثم يتلاشى، ويذوب مع البرودة والمطر مثلما تلاشت أدراج الرياح توسلات الشيخ بالحرس القومي .. فلم ننتظر أكثر" فعدنا إلى الدار المنكوبة صامتين كموكب عائد من المقبرة".

٤

نعمان نجم

كنيتي القديمة أبو الطوابع ...

كامل وعباس ومحمد لاطفوني بها بل اخترعوها لي.أنا الآن في هذه السن "أبو أسيل". لايهم ذلك، وإن تغيّرت كنيتي فالطوابع رأيت من خلالها العالم كله. يوم ألقوا القبض عليّ كنت في السادسة عشر من عمري. كادت الواقعة تغير حياتي كلها فتقلبها رأسا على عقب. لا أنكر أني شيوعي. الوحيد من بيت آل النجم انضممت للحزب الشيوعي. لا أروم تعجّل الأحداث سوى إني لا أحب العنف.. أهلي وأصدقائي يعرفونني لا أنزل عن رأي أراه صحيحا ولا ألين لأي ضغط، لست مغلقا بل أحب العالم منذ الطفولة.. لا أدري لم أحببت الطوابع، فهذه هوايتي، قد أسأل نفسي: الطوابع هوايتي يا ترى لو ولدت قبل مئات السنين حيث لا طوابع فإلى أيّ شيء كنت أميل حينذاك؟ كامل ومحمد يسخران مني أحيانا، فأرد وأتجاوز بعض الأحيان. من أجل الطوابع صادقت في مدرسة المعقل تلاميذ يعمل آباؤهم في الخليج.. الكويت..

البحـرين.. وغـامرت يومـا مـا في العطلـة الصـيفية فركبـت سـيارة وحـدي واقتربـت مـن إحـدى القنصـليات.. شـاهدت عنوانـا علـى البـاب ورأيـت علمـا.. كنـت أقـف عنـد رصـيف الشارع المطل على شط العرب من ناحية التنومة، وأتطلع في سياج البناية وشجرة النخيل والنومي الحامض ثم أضغط من دون تـردد علـى الجـرس، لحظـات وأطـل شـخص أسمـر السحنة، طويل القامة تغلف هيبته ابتسامة واسعة، تكلم معي بلغة لم أفهمها:

Stamps هل عندك طوابع؟

Stamps أول كلمة تعلمتها في الخامس الابتدائي بعد this is a cup .

أووه طوابع، تريد طوابع!

دلـف الرجـل إلى الـداخل وأحضـر لـي مجموعـة طوابـع، ومجلـة ظننتهـا بالإنكليزيـة، كنـت في الصـف السـادس الابتـدائي، فأخـذتها للمعلـم الـذي أخبرنـي أنهـا باللغـة البرتغالية، في ذلك اليوم اغتنمتها فرصة مشيت من الشارع ذاته وعبرت التقاطع إلى حيث شارع الوطن ومن هناك حشت الخطـى مجتـازا جسـر سـاعة سـورين.. عـبرت بمحـاذاة نهـر العشار. كنت أسأل العابرين عن القنصلية الإيرانية. لاحت لـي دائـرة الإطفـاء، ومستشـفى السـعدي، وكنـت عنـدها

ألـــتقط أنفاسي.صـــبي في الســـادس الإبتـــدائي، يقـــتحم القنصليات من أجل طوابع، وهكذا فعلت في الأيام القادمة مع القنصلية الروسية جمعت طوابع ومجلات، وكان محمد وكامل يعجبان مما جمعته من صور. بعض الأحيان يسخران ليثيراني، وقد ينضمّ إليهما عباس.. فأصمت.. أتجاهل أو أرد.. ولعل الطوابع وعالمها المليء بالألوان، وأشكالها وأسنانها الدقيقة الجميلة، جعلتني أرتبط بالعالم كلّه.. تبدو الدنيا جميعها بحوزتي، فأحلم أن أصبح معلما في مرحلة من حياتي أحمل بعض العبء عن أبي وأخي... ثم أكمل دراستي في الحقوق..

محام أفتح مكتبا وأعالج قضايا الناس..

كاد كلّ شيء يضيع في تلك الليلة المشؤومة...

ليلة زج بي في السجن..

قبل عودة هشام من عمله في المقبرة بساعتين داهم بيتنا أفراد من الحرس القومي.. طرقات عنيفة على الباب، وسيارات عسكرية تقف عند الشارع.. البيت مطوق.. محاصر.. أبي المسكين يصيح فيهم.. والله هاني ليس هنا.. أقسم لكم أننا لم نره منذ ترك عائلته.. أقسم.. لفّ البيت زعيق المسلحين.. وعبثهم بكل شيء.. تناثرت طوابعي وكتبي ثم توجه أحدهم إلينا وقال زاجرا أنت.. نعمان نجم..

تعال معنا... ظنّ أبي أنهم يأخذونني رهينة حتى يعود أخي الهارب، فاعترض بحدة يشوبها التحدي والخوف:

لكن هذا الصغير ماذنبه؟!

رد أحد المسلحين:

ذنبه أنه شيوعي!

عندئذٍ عرفت أني أنا المستهدف لا أخي الضابط الهارب أدركت أنهم اكتشفوا أمري.. وأني سأواجه مصيري.. هاهم يقتلون الشيوعيين في الشوارع والبيوت والساحات العامة.. لا أستبعد أن يعدموني داخل السيارة قبل أن أصل إلى أي مكان آخر...

كان أهلي يظنون أني أُلقيتُ في سجن العبيدي الشهير شأني شأن غالبية من اعتقلوهم، أما هؤلاء فقد صحبوني إلى سجن آخر.. مهما يكن قلت لنفسي لن أعترف أي اعتراف يؤدي بي إلى الموت سأموت تحت التعذيب خير من أن يوجه أحدهم رشاشته إلى صدري.. في سجنٍ ما جربوا معي أساليب شتى.. ورأيت كما يشبه النائم أنهم طافوا بي على أشخاص حفاة في ثياب ممزقة معصوبي الأعين مربوطي الأيدي من خلف تعلو وجوه بعضهم ندب زرقاء، وتغطي ملابسهم بقع حمراء عددتهم رغم الخوف..عشرة أشخاص صُوِّبت نحو صدورهم رشاشات فخروا على وجوههم إلى

الخلف، وحين سرت مع الحرس والتفت لأجد عسكريا يشدّ شعر أحدهم إلى الأعلى ربما يتأكد من موته، فيزعق بي حرس حكّ بفوهة بندقيته ظهري:

لا تلتفت حيوان! لا تتعجل مصيرك!

وأدخل بعد دقائق غرفة مستطيلة.. تنزل من سقفها كلابات علقت فيها نساء من أرجلهن فتدلت رؤوسهن نحو الأرض.كان هناك أنين يصدر من بعضهن.. وخلتني أسمع شهيق أخريات.. خفت أن أعدّهن.. إلى هذه اللحظة ترتسم الصورة في عيني غير أني لا أستطيع أن أعدّ..مراهق في السادسة عشرة من عمره.. يرى نساءً معلقاتٍ كالذبائح من أرجلهن وقد انحسرت ثيابهن فغطت وجوههن وبانت أفخاذهن وملابسهن الداخلية.. سمر وبيض.. وأخرى شقراء ووو..رائحة نتنة تشبه زفرة السمك ونتانة بالوعة فاضت فزادها عفونة ركود الهواء ورطوبة الغرفة..

ماهذه؟

اشار الحارس إلى معلَّقةٍ صدر عنها صوت، فأجاب حارس الغرفة ذو الوجه المجعد النحيف ذي العظمين الناتئين أسفل عينيه:

تلك رفيق الرقم ٤ تريد ماء

لم يجب الحارس الذي يرافقني، في حين خطا حارس

الغرفة نحو جثتين معلقتين ووخز بعصا على فخذي كل منهما:

رفيق هاتان قبل ساعات جاءتهما الدورة الشهرية!

لا تقلبهما قبل أن تعترفا.

التفت إليّ وهو يهز رأسه:

هل اقتنعت؟ أتريد أن تعود إلى بيتكم؟ أم تلقى المصير ذاته؟ هل أنت شيوعي أم لا؟

لا لا علاقة لي بأيّ حزب.

بلمح البصر أو أسرع وضع الرشاشة على الأرض ونطَّ في الهواء.. طوح برجله وهو يهبط نحو ظهري، فشعرت بمقدمة حذائه العسكري الحادة ترتطم بالجانب الأيمن لظهري.. ركلة تطاير لها الشرر من عيني وانفجر جسدي بآلام حادة.. سقطت على الأرض وتدحرجت أسفل الرؤوس المعلقة التي أختفت تحت الثياب..تضوّرت من الألم.. ولم أع وقتها أن الركلة وقعت على إحدى كليتي.. تهدجت أنفاسي وتدحرجت، فغلبني الوجع.. اصفرت الدنيا بعينيّ.. احمرت، وغامت ثم فقدت الوعي تماما...

غير أن هذا لم يكن كل شيء..

اختفت عن عيني ساحة الإعدام وغرفة النساء، واستفقت لأجد نفسي في غرفة صغيرة حشد فيها أكثر من مائتي

شخص.. أصبحت مشاهد التعذيب مألوفة لدي.. أكاد الآن لا أتذكرها فقط مشهد المعدومين والنساء المعلقات من أرجلهن..ودم حيض فاسد يتلاشى في الرحم ويضيع..كنت أتحامل كالآخرين على الألم وأقف بضع ساعات ليرقد الآخرون.. وربما كانت الضربات أقسى من الركلة الأولى التي تعرضت لها أول يوم استجوبوني فيه.. وبدا أني محظوظ أكثر من غيري.. محظوظ لاني سأصبح معلما ثم أدخل كلية الحقوق ثم أرحل مع ولدي وزوجتي إلى أيرلندا ومعي عطب جسدي من الركلة وأيام التعذيب زادتني آلاما بنية جسمي النحيفة.. ففي ذلك اليوم فوجئت بأحد سكان منطقتنا من مسؤولي الحرس القومي يزورني ويصطحبني معه إلى البيت...

نعم

هكذا في بضع دقائق دخلت التوقيف شيوعيا وخرجت منه بريئا

نجوت من الموت...

كثيرا ما رأيت ذلك الشخص.. ربما حدث بيننا سلام عابر.. قال لي الشيخ فيما بعد أنه مسؤول بالحرس القومي يعرفه أهل منطقتنا جيدا.. ما إن تذهب إليه للشفاعة في سجين ما حتى يدعي أنه لولا الحاجة لذهب اليوم إلى السجن

فيتوسط في إطلاق سراح الموقوف البريء.. لكنه يضطر اليوم لزيارة أقارب له في مدينة أخرى بعيدة غرض أن يستلف منهم ثلاثين دينارا.. هو بأمس الحاجة إليها.. خسارة في عمل تجاري وعليه حقوق للناس.. سيفعل كلّ ما في وسعه لمساعدة السجين بعد أن يعود من زيارة أقربائه.. لا شك أن نعمان بريء إن لم يعترف.. هو طالب ومازال صغيرا لايعقل أن يكون شيوعيا وأي حزب تعبان يقبل شخصا صغير السن.ويؤكّد قوله: إن لم يعترف على نفسه فسيخرج مثل الشعرة من العجين حتى لو اعترف فإنه عن خوف.. مازال نعمان صغير السنّ.. العتب على الحرس القومي أنفسهم الذين يتركون الشيوعيين الكبار سارحين ويطاردون طلاب المدراس المراهقين.. وقد وجدها الكثيرون كما وجدها أبي أيضا فرصة ثمينة.. فالشيخ وإن كان حانقا عليّ لكوني أصبحت من زمرة الكافرين إلا أن حنان الأبوة دفعه لأن يفعل أي شيء من أجلي...

ومن حسن حظي أني لم أعترف...

لم أعترف وقد بدؤا مع الآخرين بالترغيب ثم الترهيب والتعذيب ومعي حين وجدوني ضعيف البنية صغيرا باشروا بالعنف قبل أي أسلوب آخر...

وغاب عن هؤلاء أن يستلوا اعترافا من شخص كان

حريصا منذ طفولته على شيئين أولهما جمع الطوابع وثانيهما الاحتفاظ بدفاتر القراءة والكتابة والحساب، فوجدت إذ كبرت بين يدي آلاف الطوابع القديمة لدول شتى، ومعها، وقد ناهزت الستين من عمري دفاتر للسنة الإبتدائية وقد أخذ منها الزمن فغير ألوانها، وأوهى أوراقها، ومحا بعض ماكتب فيها لكن أحدها وفيه خط المعلمة وهي تبدي رأيها بإملائي... هذا الدفتر مازال يحتفظ بصورة الملك الراحل فيصل الثاني...

جامع الطوابع العنيد، والصور التي التقطها مع الأصدقاء والأقارب، والذي تقول عنه المعلمة ١٠/١٠ أحسنت ياشاطر.. ممتاز يابطل.. لم يعترف ولا يفكر بذلك قط...

حتى جاء الفرج...

وكان في المبلغ الذي دفعه أبي وأعرض عن استرجاعه ثمنا لنجاتي من موت محقق في وقت أضحى الموت يحطينا .. هناك ناس يذبحون كما يذبح الدجاج، ويُقتلون كما تقتل الكلاب فهل يسأل أحد عن كلب ميت في الطريق..

اعتقلت فوجدت والدتي تنهض من فراشها بعد مطاردة هاني، وخرجت بمبلغ سلفة لم تعد لأبي فأصبحُ فيما بعد معلما ثم محاميا...

وجاء وقت لملمت فيه نفسي وآلامي وعطب جسدي الدائم

فغادرت البلد مع عائلتي غير أن مشهد الطوابع المتناثرة، والنساء المنكسات الرؤوس حيث الاقدام المربوطة بالسقف المتدليات الشعور والضفائر، ودم الحيض الذي هبط في الأرحام مرة أخرى، والركلة على كليتي تلك الاحداث دفعتني ذات يوم بعيدا عن بغداد لأجد نفسي في إيرلندا فأحاول على الرغم من بعد السنين، أحاول أن أنسى!!!

الجزء الخامس

شكّ أم يقين

استهلال

هل يُبعث الموتى من جديد.. كتاب الموت الصامت يقرؤني كل يوم.. وكتاب الجامعة أصحبه معي.. كل هذا القتل اليومي والبكاء والنحيب الاغتيالات، وحواجز الموت، ومازالت المقبرة هادئة لا أحد يكاد يلاحظ شيئا.. وها أنا أرى الموتى يبعثون من جديد.

١

بين الحياة والموت

كنت في العمل ومعي في غرفة الاستقبال حارس المقبرة، ننتظر زائرا جديدا.. جنازة .. حفار ومساعده.. أكشف عن وجه الميت أسجل اسمه وينتهي دوري.. وفاة طبيعية يقول الطبيب، فأين هم القتلى الذين يسقطون يوميا في مواجهات دامية أم أين الموتى ممن يقتلهم الحرس القومي.. أرافق الحارس.. أجلس وحدي لاقلق ولاخوف.. أنا هناك ملك الموتى.. ملك لمكان هادئ بعيد عن الصخب. أفتح كتابا حملته معي من كتب المنهج الجامعي وذهني مشتت متناثر لا أقدر أن ألمه.. أجمع شتات أفكاري ثم أعود إلى هواجسي، نعمان عاد فارتحت..نهضت أمي وإن بقيت نوبة السعال تراودها لكنها غادرت الفراش.. فهل حقا قتل هاني برصاص سمعناه يهز الشارع ولا يتحرج مَنْ قتله من أن يرمي جثته في البرية حيث تكون عرضة لكلاب متوحشة وذئاب!!

وقطع عليّ هاجسي الكئيب دخول شخص ما غرفة

الاستعلامات.. رجل في الأربعين من عمره طويل القامة نحيف يبدو من هيئته أنه عامل.خمّنت حين وقع بصري على يديه الخشنتين وأصابعه الكبيرة أنه يعمل في قلع الأحجار.ألقى الرجل التحية فرددت وسألته:

هل هناك وفاة؟ تعرف الإجراءات!

فدنا مني وانحنى كأنه يهمس:

يا أستاذ هشام معي كل خير!

فبقيت متعجبا ساهما في سحنة الرجل، وهيئته.. لم أره من قبل مع عمال البلدية ولا في محلتنا ،كيف عرف اسمي؟ فانهالت في نفسي شكوك، وسألت باستنكار:

من أنت أيها السيد وكيف عرفت اسمي؟

انحنى على الطاولة أمامي كأنه يحذر من أن يسمعه أحد:

ليس لدينا وقت نضيعه أنا غريب أبو عبد الله جئت من قبل أخيك هاني!

مفاجأة غريبة...

هاني حيّ!

لعل هذا الرجل كاذب.. منافق من الحرس القومي جاء يختبرني.. إن يحدث طاريء لي فسوف تنتهي حياة الشيخ في البيت.. الشك والخوف يدفعاني لأن أصرخ أصيح ابتعد أنا

بريء من هاني لا أعرف شخصا بهذا الاسم.. هاني مات..هل تركض وراء سراب.. مات فماذا تريد..

ويبدو أن الرجل قرأ هواجسي، فسارع يقول :

أذكرك بالحلة والخمسين دينارا للمحامي وقصص عن نعمان والطوابع.. لا وقت لدينا لكي نضيعه هل زال عنك الشك؟

عندئذٍ تنفست الصعداء.. جبل من الخوف انزاح عن صدري. سيعرف الجميع بعد حين أن هاني حي.. فتشيع بقايا فرحة ذابلة باهتة في البيت:

وأين هو الآن؟

في الرحمانية!

هززت رأسي وقلت:

لا بد أن أراه!

بل تذهب معي الليلة إنه يريد أن يراك لتدبر أمر هربه إلى إيران!

عبء جديد يلقى على عاتقي.. عذاب آخر وجهد..

عقبة أخرى...

مع ذلك علي أن أذهب الليلة مع الزائر الغريب.. العاشرة ليلا.. حين أترك المقبرة للحارس.. كان غريب أبو عبد الله يتربص منذ العصر يراقب المدخل حتى إذا رآى الجنازة تدلف

والحارس يغادر مع الحفارين وجدها فرصة ليفاجأني لا حيلة أمامي إلا أن أتأخر.. أنا في شوق لرؤية أخي وأيّ شوق..كم عظيم أنت يا نعمان حين أنكرت فربحناك وها نحن نربح أخانا الآخر وإلا لكنا خسرناكما أنتما الإثنين..هاني يدعوني وسيكلفني بمهمة كنت قبل أربع سنوات صبيا في الصف الأول الثانوي فحملت عبئا كبيرا وأنا الآن طالب جامعيّ فهل أعجز عن ذلك: قلت لغريب ونحن في طريقنا إلى الرحمانية:

ماذا كنت تفعل لو بقي الحارس معي وترك الميت مع مرافقيه والحفاريْن؟

لا تخف هناك أفكار بديلة حضّرتها من قبل لكل احتمال!

وغادر على أمل أن يعود الساعة العاشرة، كان ذهني ينصرف إلى هاني، ومكانه، أرسم صورته في خيالي، وأضع عدة احتمالات: لم يسعفني الوقت كي أسأل غريب إن كان أخي مصابا وكيف دبر أصدقاؤه علاجه، أربع ساعات عن الموعد المنتظر، وأمامي عذر ألقيه بوجه الحارس سأقول له إني ذاهب الليلة للمذاكرة مع صديق قريب من هنا وما عليّ إلا أن أترك دراجتي في غرفة الاستعلامات..لن أدع الفرصة تفلت مني وإن أدى ذلك إلى قلق الوالد..هل

أسبب أزمة جديدة لأمي المسكينة.. فأجعلها طريحة الفراش مثلما جعلتها غيبة نعيم تعود للحياة؟ مهما يكن فلابدّ من أن أتأخر..كلّ الزوار يأتون إليّ من أجل الموتى إلا صديق المفاجأة غريب جاء من أجل شخص حيّ في حين أنا واحد من ثلاثة حراس رضوان حارس الجنة ومالك صاحب الجحيم.. وأنا الذي يعنى بمن يدخل المقبرة، ولابد لمن هو ذاهب للجنّة والنار أن يمرّ بي، وبدا أن الأمور تسير أيضا معي باتجاه آخر لايخصّ الموتى وحدهم.. حين أكون في الجامعة أعيش الجنة بكل مافيها من مشاهد جميلة.. واحد من سكانها ولا أتمتع بما يتهافتون عليه من حب وطعام فإذا جئت إلى هنا عافت نفسي كلّ شيء..ولم تعد بي رغبة لأيّ شيء ثم في هذه الليلة بالذات أذهب لمكان ما لأمنع موتا.. أمارس عملا ينفي شغلي الذي آكل منه لقمة عيشي.. أنقذ إنسانا حكم عليه بالموت..

حين انعطفت يمين المقبرة واتجهت نحو الشارع الرئيس، توقفت عند الرصيف سيارة زرقاء قديمة وهتف صوت ميزت صاحبه:

هشام إصعد معي!

الليل وعتمة المصابيح وهدوء غير مألوف قد تسمع خلاله صوت أعيرة ناريّة، وأنا في سيارة بجوار مُهَرِّبٍ وأيّ مُهَرِّب..

رجال موتى القلوب تعدهم الدولة أكثر من خطرين وتراهم السلطات لا يستحقون إلا الموت..الرحمانية بدت لي بعيدة أما غريب فقد التفت إليّ وقال:

هاني حكى لي عنك كثيراً. أنت لاتخاف.

أية مغامرة يمكن ألا تجعلني أفقد حياتي لكنها قد تودي بالعشرين دينارا التي تتكفل مصاريف البيت والجامعة، مع ذلك أشعر بسعادة لأنني سألتقي أخي هاني:

هل سمع هاني باعتقال نعمان!

طبعا أخباركم تصل إليه أوّلا بأول!

نعمان بطل لم يعترف.

من حسن حظّه فلو اعترف لأعدموه قبل أن يصل الشخص الذي توسط له!

انعطفت بنا السيارة في ممرات ودروب، وعبرت بيوتا مهملة ثم توقفت عند أحد المنازل، قادني غريب إلى المأوى السري حيث يكمن أخي فميزت شجرة سدر عند المدخل و في باحة المنزل المطلة على باب آخر تخيلته الباب الخلفيّ نخلة من أمامها حوض تقطرُ حنفيته قطرات متلاحقة ثم دخلت مكانا أشبه بالمعتم.. تحسست- وأنا أهبط خلفه- ست درجات ووقفت عند مربع يفصل بينها والدرجات الست التي تليها.. فانوس.. ومصباح نفطي تبين ذبالته من الزجاجة

الشفافة ثم شبح ذو لحية كثة يدعى هاني فأيقنت أنه هو وأخذته بالأحضان.. ورحت أنشج...

بكيت وأنا ألقي برأسي على كتفه.. حقا لقد غلبتني الدموع.. كان يربت على خدي ويمسح بيده على ظهري.. دخلت في موجة نشيج.. كأني أعانق معجزة.. كلّ أسبوع أرى وجوها ذابلة صفراء ممدة في التوابيت لم تنطق..

موت مفاجيء..

سكتة قلبية

قتيل ثأر

مات بالسكّر.. بالضغط.. حادث تصادم...

عيون مغمضة.. أجساد لا تتحرك تعودت من خلال النظر إليها ألفة الموت وقد ظننت أني لن أبكي قط مادمت صادقت الموت فلن تغلبني ثانية دموع سكبتها أمام السيد العقيد ذات يوم من أجل أن يسمح لي بزيارة هاني، ولا البكاء والنحيب أمام السيد مدير البلدية ليتركني في وظيفتي، مازالت فيَّ روح طفل سلاحه الدمع، فما إن رأيت هاني حتى نسيت نفسي ونسيت للموت ألفته فأعادتني الحياة للبكاء من جديد!

ماهذا هشام أنت رجل وإلا لما كلفتك بالمجيء إلى هنا!

حسنا سأتركك مع أخيك وأعود فجرا لأوصله إلى

البيت!

تصبحان على خير!

قال ذلك غريب وصعد السلم فالتفت إلى هاني وأنا أكفكف دموعي:

ماذا هل أبقى للفجر!

نعم أريد أن أحدثك عن هربي إلى إيران ومدى استعداد أختنا هناء لمساعدتي!

لكن ماذا عن الوالد والوالدة؟ والبيت؟

لا تخف عامل البلدية أفهمهم أنّ حارس المقبرة سألك أن تحل محله لطارئ ما اضطره أن يغادر فدفعتك طيبتك لتبقى الليلة هناك!

فاستغرقتني دهشة مفاجئة لِمَا سمعت:

أيّ عامل؟ وماذا تعني؟

يا هشام لقد عرفتك ذكيا أبو عبد الله غريب ذهب لمنزلنا بعد مقابلتك بصفته عاملا معك في البلدية وأخبر الوالد أنك تحل الليلة محل الحارس!

فرانت علينا لحظة صمت قطعتها متسائلا:

والنتيجة ماذا عن هربك؟

لا تتعجل لهذا استدعيتك!

وماذا بإمكانك أن تفعل والحكم أصبح بيد الجماعة؟

فردّ عليّ يائسا:

أهرب إلى إيران!

أمتأكد أنت من نجاحك في الهرب؟

أنظر إليّ جيدا!

فتمعنت في وجهه لحظات. اللحية، البشرة السمراء، نحافة الوجه، وقطع عليّ تأملي بوجهه حين وضع الكوفية على رأسه والعقال، وقال:

معي بطاقة شخص متوفى، بهذا الشكل لن تعرفني مفارز الحرس القومي لكن كل شيء متوقف على هناء.. أنا أعرفها لا تخاف تحبني أكثر من أيٍّ منكم ربما أكثر من زوجها..مع ذلك تستطيع أن ترفض!

لا أظنها ترفض!

طيب أنصت لي جيدا لكي تعي ما تسمع .

وكان طول اليل يشرح لي خطة هربه، وأظنني لم نغف إلا قليلا!

٢

هناء نجم

أم صفاء هناء نجم..

هل من المعقول أن أرد طلب أخي هاني الذي تفاءل أبي به وسماني باسمه؟ لا أظنني أقترف خطأ ولا أتصوّر قط أنّ زوجي يمانع في أن يرافقنا.كلنا نحب هاني،فمن المحال أن أذهب مع طفلي برفقة أخي ثم نعود في مثل هذه الظروف وحدنا.. سيخوض المغامرة طفلي الرضيع الذي قُدِّر له أن يصحبَنا في هذه الرِّحلة الغريبة المملة الطويلة كي يبعد عنا الشبهات.. تلك الليلة التي سبقت محاولة الهرب، لم تخفِ أمي قلقها على صفاء، وأصرّت بتول على أن تصحبه إلى بيت جدِّه خلال غيابي، ربما لو كانت أمّ طفل غيري لرضختْ لكنه حبّي لأخي، مع ذلك، وليس أشدّ عليّ من أن أقحم الصغير في رحلة غير مضمونة بين الحياة والموت،فقد وجدت فيه بشرى خير، وملاذا نلجأ إليه نحن الثلاثة،أما الموت فيبقى شاخصا في خاطر أيٍّ منّا..

لقد وصلنا مبكرين إلى ساحة علاوي الحلة لعلّ بقية

ظلامٍ قبل الفجر تشفع لنا فتخفيَ ملامح أخي مع ذلك لم أكن راضية عن السماء التي بدت صافية على غير ما كنت أتمناه.لو اختار هاني لهربه يوما غائما غزير المطر ينشغل به العابرون وحراس الحواجز، فتتشتت أبصارهم عنا. لقد كان كلّ ما في علاوي الحلّة يثير شكوكنا.. باعة السجائر.. الشحاذون المتجولون الذين يمرون من أمامنا يتضرعون مادين أيديهم وهم يتمعنون في وجوهنا. وكنا من قبل نشكّ في أي شحاذ يطرق الأبواب. بيت أبي أو بيتي.. نحن عائلة ضابط هارب.. هنا في هذا المكان يمكن أن تبعث فينا الريبةَ نسمة هواء خفيّة تداعب وجوهنا..وزقزقة طير تنطلق بانتظار الفجر أو تثيرني أصوات المنادين على العابرين:

الناصرية.. الناصرية راكبان فقط!

البصرة راكب واحد؟

أنتم إلى البصرة؟

لا نحن إلى العمارة!

ردّ زوجي على الشاب الذي توجه إلينا السؤال ثم انصرف، فارتحت. كان صفاء عند هاني.. أغلب الأوقات بين ذراعيه يلاعبه ويرفعه للأعلى كي يخفي بجسده الصغير ملامح وجهه.. حلويّات.. عرموط.. تفاح.. حافلة

البصرة اكتمل ركابها وبدأت تغادر.. مازال المنادي يلهج: الناصرية.. الناصرية راكب واحد فقط.. بعض مسلحي الحرس القومي يعبرون من أمام الساحة.. وجدنا من العبث أن نستقل سيارة أجرة فنكون مكشوفين أكثر لنقاط التفتيش وحواجز الحرس.. وفي المحطة اتخذنا مكانا لايلفت النظر. زاوية بين بعض الحافلات وجدار الساحة.. كنت ألقي بين لحظة وأخرى نظرة خاطفة على هاني.. ثم يزوغ بصري إلى مدخل المحطة حيث الحافلات وهي تغادر.. اللحية الكثة والكوفية والعقال غيّرا ملامح أخي كثيرا من المحال أن يشك فيه أي من حرس الحواجز، والحرس المشاة.. أجده بارد الأعصاب هادئا كأن الدنيا لاتعنيه ولايحيق به خطر ما.. هكذا هو هاني هادىء في أشدّ المواقف.. لاتنمّ قسمات وجهه عن اضطراب أو خوف وإن كان يحمل اسما آخر غير اسمه.. محمود أحمد سلمان.. هاني ذو اللحية الكثّة الذي اعتاد أن يحلق لحيته حتى في يوم الجمعة.. هذا هو اسمه.. بطاقة شخص متوفى.. انسَي اسم هاني يا أم صفاء قال هشام ذلك وهو يبتسم بمرارة قبل أن يوصلنا إليه.. تذكري هذا الأسم محمود أحمد سلمان.. لم أتشرف أنا مراقب الموتى بهذا الإسم.. ولعله دفن في مكان آخر من غير أن يبلّغ عنه أحد.. نكتة باهتة يظن بها يطرد القلق عنّي. لايهمني

شـيء تلـك اللحظـة.. سـوى التطلـع إلى السـاحة وأذنـاي متحفزتان لكل صوتٍ.. لكلّ منادٍ ولم يظهر بعد من يصيح: العمارة.. تحت ملابسي أخفيت مسدسين واحد لهاني وآخر لزوجي.. أية نقطة حراسة تشك فينا ألقي اليهما بالمسدسين ليطلقا النار على الحرس.. مسألة حياة أو موت بدلا من أن يموتا في السجن وتحت التعذيب وربما بقرار عاجل من المحكمة العسكرية.. الأفضل أن يَقتلا ويُقتلا فلا تذهب دماؤهما هدرا.. أما أنا فما عليّ إلا أن احتضن صغيري بين ذراعيّ.. من حسن الحظ لم تكن عام ١٩٦٣ نساء مع الحرس القومي يقفن عند الحواجز، والطرقات، يفتشن النساء.. وكان المسلحون يبتعدون مسافة إذ يرون عائلة معها امرأة وطفل.. بقية حياء مازالت.. كنا نتحدث ونبدو نثرثر وكلامنا أشبه بالهمس.. أحيانا نسأل عن أشياء نعرفها:

كم ساعة يستغرق الطريق من بغداد إلى العمارة؟

خمس ساعات!

يسأل زوجي، فأرد عليه، ويعقب هاني:

الطريق إلى البصرة أطول.. سبع ساعات!

أعود أتساءل:

متى تأتي حافلة العمارة؟

لابدّ أن تكون هناك حافلة!

مازال الوقت مبكرا.

بإذن الله نصل مبكرين!

وحالما انقشع الظلام وانحسر عن وجه هاني وجدته كما عهدته هادئا باردا كأنما الدنيا لاتعنيه ولا يفكر في ذلك الخطر المحيط به.. مازال يحمل بين ضلوعه قلب عسكري يواجه الموت بشجاعة ولا يبالي.. الوقت يمضي والمنادي يصيح على مسافري محطات أخرى.. يقترب منا شاب نحيف في العشرين من عمره.. بين العتمة والضوء كدت أرى عينيه الخضراوين فأوجستني خيفة:

أية مدينة تقصدون؟

العمارة.. نحن إلى العمارة..

أجاب محمد، وبقي هاني يلتفت إلى جهة بعيدة وهو يربت على كتف صفاء الذي أخفى رأسه بصدره:

بعد دقائق!

غادر الشاب فخلت ثقلا ينزاح عنا في الوقت نفسه تنفست الصعداء، فقد جاء الفرج بعد دقائق:

العمارة.. العمارة... مسافرو العمارة..

التفتنا إلى جهة الصوت حيث المنادي يقف عند حافلة قديمة مركونة جنب الرصيف الأيمن لمدخل الساحة..جلسنا في الخلف ثلاثتنا.كان ولدي صفاء بين ذراعي خاله حتى

إني خشيت أن يبكي من جوع أو عطشٍ قبيل وصول الحافلة لنقطة تفتيش فأضطر إلى إرضاعه عندئذ لا يكون هناك حاجز يخفي وجه أخي..

الحلة راكبان.. راكبان.. الناصرية..

صاح المنادي نفسه ومازالت حافلتنا تنتظر، أظن محمد مثلي يشعر بوطأة الزمن وثقله لا أعرف.. لكني أتحدث عن نفسي.. أما هاني فأجهل شعوره تماما أظنه هو نفسه باللحية الكثة والكوفية والعقال أو الضابط بنجماته الزاهية، وقبعته ووجهه الحيوي الحليق.. محمود أحمد سلمان لم يمرّ هذا الميت بأخي هشام مراقب الموتى.. أعرفه لايسخر من الموت.. يريد لمزاجي أن يروق عبر الحديث البريء عن ميت منح أحدإخوتي اسمه غير أن مجيء الراكب الأخير خفف من قلقي.. فانطلقت الحافلة وقد زالت مع انطلاقها بعض هواجسي وبقيت يدي تتحسس المسدسين:

أعطني صفاء لأرضعه.

همست، وأخذت ابني الذي سرعان ما راح يغطّ في نوم عميق.. حالما انتهى من الرضاعة.. لم أر نقاط نقاط التفتيش لكنّي عرفت من زوجي محمّد أماكن انتشارها على الطريق فحفظتها عن ظهر قلب. حاجز بغداد.. حاجز ينتظرنا حين ندخل الكوت وآخر ونحن نخرج منها وحاجز يستقبلنا

في العمارة.. كان المقعد الأخير يحمينا كالمتراس، سلمت الصغير إلى هاني وما أن أبطأت السيارة حتى أدركنا أنه حاجز بغداد.. توقفت الحافلة، فرفع هاني الصغير الى ذقنه كأنه يتفحصه وتحسست المسدسين تحت ثيابي.. لم يصعد الحارس الذي اعتاد - شأن رفاقه الحرس القومي الآخرين- أن يجعل رشاشة بور سعيد تتدلّى من كتفه بل ألقى لمحة عابرة على الصفوف الأولى والتفت إلى السائق:

أين وجهتكم؟

مدينة العمارة!

الله معكم!

وانطلقت الحافلة ثانية.. وخفف من وقع الخوف والقلق في نفوسنا أنّ حراس حاجزي الكوت قد لا يعرفوننا أمّا حاجز العمارة فيبقى الأكثر خطورة علينا.. هاني خدم في هذه المدينة مدّة قبل أن ينتقل إلى بغداد ولعلّ هناك من يتفرّس في ملامح وجهه التي اختفت بين اللحية الكثة والعقال..من المحال أن يميّزه أحد.. لو قابلته في الشاعر مصادفة بهذه الصورة لما عرفته.. أحاول أن أقنع نفسي.. كان قلقي يزداد كلما اقتربت الحافلة من مدينة العمارة... كانت شفتاي لا تفتران عن الدعاء ونظراتي تكاد تسكن على وجه هاني ولا تتحولان عنه..ومن حسن الحظ أنّ صفاء صحا بعد ساعة

من مغادرتنا حاجز الكوت، فأرضعته ثانية..ساعة بقيت وندخل الملجأ الأخير.. كنت أسأل عن الوقت..إذا حالفنا الحظ سنكون بعد هذه الساعة الحاسمة في بيت أقاربنا الذين يتولون نقل أخي إلى هور الحويزة:

ياجماعة جهزوا بطاقات تعريفكم بدأنا نقترب من حاجز التفتيش.

نادى مساعد السائق، فتوقفت بعد دقائق الحافلة عند حاجزٍ للحرس القومي.. كان هناك ثلاثة يجلسون في حلقة وقد وضعوا رشاشاتهم على مسطبة بينهم.. التفتُ إلى هاني الذي رأيته يرقص الطفل أمام وجهه،وصفاء، ابني،يستغرق في ابتسامة وانشراح.. خلال لحظات صعد شاب مفتول العضل يبين مسدس من جيب سرواله العسكري الخلفي.. طلب هوية شاب جنب السائق ثم قصد رجلا ذا عقال يجلس في المنتصف فتمعن في هويته.. ألقى نظرة سريعة علينا وهبط من الحافلة...

إذن كان كلّ شيء على مايرام.

تنفسنا الصعداء وشفتاي مازالتا تدعوان...

سنكون بعد دقائق في منزل أقاربنا.

راحت الحافلة تنهب الطريق من جديد إلى حيث الأمان.. كان هرب هاني أشبه بالمعجزة التي تحققت ومادمنا قد

اجتزنا آخر حاجز من حواجز التفتيش فإن أخي سيكون بعد أيام خارج البلد وإن العالم الواسع المترامي الأطراف يفتح إليه ذراعيه على الأقل نعرف أنه حي وأننا يمكن أن نلتقيه ذات يوم!.

إلى هنا ينتهي الكتاب الأول من "قصة عائلة" أما هرب هاني إلى الهور ودخوله إلى إيران واتصالاته لتهريبه من قبل حزب تودة إلى الاتحاد السوفيتي وإلقاء القبض عليه من قبل الأمن الإيراني والتحقيق معه وإرجاعه إلى العراق ومجيء القوميين جماعة عبد السلام عارف بانقلاب على البعثيين وكانوا أقل دموية فلم يعدموه فهذا يحتاج إلى كتاب ثان بسرد هاني نفسه لايقل حجمه عن حجم هذا الكتاب.

السيرة الذاتية

قصي الشيخ عسكر ..

- الاسم الكامل: قصي عبد الرؤوف عسكر
- اسم الشهرة: قصي الشيخ عسكر
- الجنسية الأصلية عراقية، يحمل الآن الجنسية الدنماركية ويقيم في بريطانيا
- تولد: ١٩٥١

مكان الولادة: البصرة – العراق

الشهادات العلمية

- بكلوريوس من جامعة البصرة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤
- دبلوم بدرجة جيد من جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها عام ١٩٨٥ – ١٩٨٦
- ماجستيرمن جامعة دمشق، كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها بدرجة امتياز عام ١٩٨٨
- دكتوراه في الأدب العربي من الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية في لندن عام ٢٠٠٤.

الشهادات الأخرى

- شهادة من المدرسة العالية بكوبنهاغن في اللغة الدنماركية.
- شهادة من معهد كمبردج في اللغة الإنكليزية.

جوائز وشهادات

- حاصل على جائزة لابداع لعام ٢٠١٦م، الصادرة عن مؤسسة المثقف في سيدني – أستراليا.
- حاصل على جائزة المثقف لعام ٢٠١٢م، الصادرة عن مؤسسة المثقف في سيدني – أستراليا.

البحوث العلمية المطبوعة

- آراء القدماء في البلاغة، ط مؤسسة البلاغ، لبنان، عام ١٩٨٧
- قيم جمالية في نهج البلاغة، ط مؤسة البلاغ لبنان، عام ١٩٨٨
- مفاهيم اقتصادية في نهج البلاغة، ط مؤسسة البلاغ، لبنان، عام ١٩٨٨
- التشبيه والاستعارة في نهج البلاغة، ط مؤسسة البلاغ، لبنان، عام ١٩٨٨
- الأسلوب القصصي في نهج البلاغة، ط مؤسسة البلاغ، لبنان، عام ١٩٨٨
- الحسن بن وهب حياته.. مقالاته رسائله شعره، مؤسسة البلاغ، لبنان، عام١٩٨٨
- النجاشي شاعر صفين مؤسسة البلاغ لبنان عام ١٩٨٨
- الاغتراب في نهج البلاغة مؤسسة البلاغ لبنان عام ١٩٨٩
- أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة أطروحة الدكتوراه دار معد دمشق ٢٠٠٧
- معجم الأساطير والخرافات الجاهلية دار الوراق عمان.

مخطوطات

- قضايا مشتركة عند العرب والاسكندنافيين (مخطوط)
- الحيوانات والحشرات والنباتات في الكتب المقدسة: العهد القديم، الجديد، القرآن (مخطوط)
- القاموس الثلاثي المشترك (مخطوط)
- المنقلب والمتحول من الكلمات (مخطوط)

الكتب الإبداعية الأخرى المطبوعة

- في الشعر: رؤية مجموعة شعرية، مطبعة الأمين، دمشق ١٩٨٥
- صيف العطور الخرساء، مطبعة الثقافة، دمشق ١٩٨٨
- عبير المرايا، دار اليسر، دمشق ١٩٩٢
- رحلة الشمس والقمر، دار الأضواء بيروت، ٢٠٠٢
- الأعمال القصصية والروائية والمسرحية
- الشاعر، مجموعة مسرحيات قصيرة، مطبعة الغري، النجف عام ١٩٧٣
- المعجزة قصص قصيرة، دار مجلة الثقافة، دمشق عام ١٩٨٩
- المكتب، رواية، دار الحصاد دمشق ١٩٨٩
- المختار، رواية، دار الكنوز بيروت ١٩٩٠
- سيرة رجل في التحولات الأولى، دمشق عام ١٩٩٠
- شيء ما في المستنقع، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق عام ١٩٩١
- الشمس تقتحم مدينة الثلوج، دار الكنوز، بيروت عام ١٩٩٣
- امرأة بستة أزواج، دار الكنوز، بيروت، عام ١٩٩٥
- التجربة.. النفق الموتى يزحفون، روايات من الخيال العلمي، دار الكنوز، بيروت، عام ١٩٩٥

- آخر رحلة للسندباد، دار الكنوز، بيروت عام ١٩٩٥
- نهر جاسم، دار الأضواء، لبنان عام ٢٠٠٤
- وأقبل الخريف مبكرا هذا العام، رواية، ط القاهرة.
- المقصف الملكي، رواية، بيروت.
- الحبل والنار التي تسري، رواية، بيروت.
- الثامنة والنصف، رواية، بيروت.
- رسالة، رواية.
- روايات وقصص من الخيال العلمي، ط القاهرة ٢٠١٠ .
- الرباط رواية دار ليندا دمشق ٢٠١٧

الدوريات العربية التي نشرت فيها

- الموقف الأدبي، مجلة اتحاد الكتاب العرب – دمشق. جريدة المؤتمر اللندنية. العربي الكويتية. جريدة الاهرام المصرية. القبس الكويتية.
- النشرات الأجنبية: عشر قصص قصيرة نشرت في بعض الصحف الدنماركية النشاطات الفكرية:
- إلقاء عدة محاضرات عن الأدب العربي في جامعة دمشق.
- إلقاء عدة محاضرات عن الأدب العربي في قسم الاستشراق بجامعة كوبنهاغن.
- المساهمة في رفد معجم البابطين للشعراء العرب والمساهمة فيه.
- لقاءات لصحف ومجلات عراقية وعربية. العمل مراسلا لجريدة الشرق الأوسط اللندنية.

المؤلفات التي صدرت عن أعمال الشاعر

- رسالة ماجستير عن شعر قصي عسكر، كلية التربية، جامعة البصرة، خلدون الموسوي.
- رسالة ماجستير عن روايات قصي الشيخ عسكر، كلية التربية، جامعة البصرة، الآنسة إيناس جاسم محمد.
- الرواية والمستقبل والنص الموازي، دراسة في روايتين لقصي الشيخ عسكر، د.عبد الرحيم مراشدة، كلية الآداب، جامعة جدارا، الأردن، ط العارف، بيروت، ٢٠١٣ .
- رائد الأدب المهجري المعاصر، د. هدى الصحناوي، عن مؤسسة المثقف.
- الحساسية الجديدة في روايات قُصي الشيخ عسكر، د. صالح رزوق عن مؤسسة المثقف.
- بحث محكم قدمته عن شعر الشاعر الدكتورة هدى صحناوي استاذة الادب العربي الحديث في جامعة دمشق / كلية الآداب الى مجلة دراسات الخليج التي تصدر عن جامعة البصرة.
- بعض المقالات التي كتبها أدباء ونقاد عن مؤلفات الكاتب في الصحف العراقية والعربية او مقدمات لكتبه.

مؤسسة المثقف العربي

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الإعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في ٢٠١٠/٠١/٠٥م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وايجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات أخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها.

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، ترفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الإنقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الإنسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري.

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسة المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات المؤسسة خارج أستراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد.

مبادئ مؤسسة المثقف العربي

- نؤمن بالتعددية والرأي الآخر.
- ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات.
- نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان.
- نحارب العنف والتحريض والتكفير.
- نرفض الخطاب الطائفي والأيديولوجي المحرض .
- نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض .
- نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث والتحديات، ونعرّف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه.

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

إصدارات مؤسسة المثقف العربي:

- تجليات الحنين .. في تكريم الشاعر يحيى السماوي (ط١)/ إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- الضد النوعي للاستبداد

استفهامات حول جدوى المشروع السياسي الديني / ماجد الغرباوي

- امرأة بين حضارتين ... حوار مفتوح مع ا. د. إنعام الهاشمي / إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- د.عبد الرضا عليّ .. رحلةٌ متوهّجةٌ في فضاءِ النقد والدرسِ الأكاديمي / إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- جذِلاً .. بينَ سِربِ السنونو / سعد الحجّي

- وفاء عبد الرزاق .. أفق بين التكثيف والتجريب / إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- شوكت الربيعي .. فضاء إبداعي متوهج / إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- مدارات ايديولوجية .. حوار مفتوح مع الاستاذ سلام كاظم فرج / إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- الشيخ محمد حسين النائيني .. منظّر الحركة الدستورية / ماجد الغرباوي
- أيلول وضوء القمر / د. هناء القاضي
- أدخلُ جسدي أدخلُكم / وفاء عبد الرزاق
- غرّيد القصب /. سنية عبد عون رشو
- تعالى لأبحثَ فيك عنّي / يحيى السماوي
- مدخل إلى الضوء / وفاء عبد الرزاق
- المتخيل التعبيرى / د. نادر أحمدعبد الخالق
- منهج الشهيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الإسلامي / د. عبد الجبار الرفاعي.
- ترنيمتان لمنفى واحد / سوزان سامي جميل وأفين ابراهيم
- مطارحات حول الحجاب والزينة في الشرع الإسلامي / غالب حسن الشابندر
- (مسرحية) رحلة ابن عوف إلى بلاد الخوف / محمد تقي جمال الدين
- العُمْرَان البشري الإسلامي / دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية / د. رشيد كُهُوسْ
- في غياب الجواب / وفاء عبد الرزاق

- أغلال أخرى / وفاء عبد الرزاق
- وجوه أشباح وأخيلة / وفاء عبد الرزاق
- إدمان السياسية .. سيرة: من القومية للماركسية للديمقراطية / جورج كتن
- الزمن المستحيل / وفاء عبد الرزاق
- حاموت / وفاء عبد الرزاق
- سطر .. الشارع / فلاح الشابندر
- توظيف النص القرآني في شعر أحمد مطر / أ. د. محمد ثامر السعدون الحسيني
- البحث عن اللون / حسن البصام
- العقل .. قراءات في إشكالية العقل عبر المدارس الفلسفية المتنوعة (١) / غالب حسن الشابندر
- العقل .. قراءات في إشكالية العقل عبر المدارس الفلسفية المتنوعة (٢) / غالب حسن الشابندر
- أنقذتِني مني / يحيى السماوي
- فنتازيا النّص في كتابات وفاء عبد الرزاق / د. وليد جاسم الزبيدي
- صمغ اسود / وفاء عبد الرزاق
- الطيور المهاجرة ورماد العودة .. حوار مفتوح مع ا. د. عبد الاله الصائغ / إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- أنا ليلى حتى الرمقِ الأخيرِ / سوزان عون
- الاغتيال الاموي للبحر (مسرحية) / محمد تقى جمال الدين
- المرأة والقرآن .. حوار في اشكاليات التشريع / د. ماجدة غضبان وماجد الغرباي

- تطوّر المباني الفكريّة للتشيّع / د. حسين المدرسي الطباطبائي
- الحركات الإسلامية .. قراءة نقدية في تجليات الوعي / ماجد الغرباوي
- أشك حتى .. / وفاء عبد الرزاق
- الشيخ محمد رضا المظفر وتطور الحركة الاصلاحية في النجف / الشيخ محمد مهدي الآصفي، تقديم: ماجد الغرباوي
- رائد الأدب المعاصر .. دراسة في شعر الشاعر المغترب قصي الشيخ عسكر / د. هدى صحناوي
- رسالة (رواية) / د. قصي شيخ عسكر
- جدلية السياسة والوعي .. قراءة في تداعيات السلطة والحكم في العراق / ماجد الغرباوي
- وطن الجراد (رواية) / ا. د. محمد ثامر
- إشكاليات التجديد (ط٣) / ماجد الغرباوي
- تجليات الحنين .. دراسات وشهادات في منجز الشاعر يحيى السماوي (ط٢) / إعداد وتحرير وتقديم: ماجد الغرباوي
- إخفاقات الوعي الديني.. قراءة في تداعيات النكوص الحضاري / ماجد الغرباوي وسلام البهية السماوي
- الخيال السوسيولوجي العراقي ..عبد الجليل الطاهر أنموذجا / د. محمد حمود إبراهيم السهر
- أولاد النصرانية .. جيل آخر (رواية) / أحمد الشطيبي
- الحساسية الجديدة في روايات قصي الشيخ عسكر / د. صالح الرزوق، ٢٠١٦م.
- رهانات السلطة في العراق .. حوار في أيديولوجيا التوظيف السياسي / ماجد الغرباوي وطارق الكناني

- استدر مع ضوئي / سلوى فرح
- حديقة من زهور الكلمات / يحيى السماوي
- مدارات عقائدية ساخنة.. حوار في مُنحنيات الأسطرة واللامعقول الديني / ماجد الغرباوي وطارق الكناني
- بوح في خاصرة الغياب / ذكرى لعيبي
- عزيف النحاسيات .. للكاتب: سكوت ماينار / ترجمة: صالح الرزوق وسكوت ماينار
- قصة عائلة (رواية توثيقية) / د. قصي الشيخ عسكر
- البطلُ البريء / د. حسين سرمك حسن
- أحلام نبوية / عبد الكريم سروش – ترجمة وتقييم: أحمد الكناني

AAA-Sydney – Australia
Almothaqaf Arabic Association

مؤسسة المثقف العربي ٢٠١٠

الفهرس

الجزء الأول: البصرة . . . 5
١ - المدرسة . . . ٦
٢ - العقيد جلال . . . ٢٢
٣ - المعتقل . . . ٣٧
٤ - هاني نجم . . . ٦١
الجزء الثاني: سفر دائم . . ٨٩
١ - بغداد ثانية . . . ٩١
٢ - مدرسة الكرخ . . ١٠٠
٣ - مدرسة الكاظمية . . . ١١٨
٤ - الحاج نجم . . . ١٣٧
الجزء الثالث: الرّصيف . . ١٥٩
١ - عشرون دينارا . . ١٦٠
٢ - بين العيدين . . . ١٧٠
الجزء الرابع: المقبرة . . . ١٨٧
١ - أبو فرعون . . . ١٨٨
٢ - انقلاب . . . ١٩٩
٣ - سجن خفيّ . . . ٢٠٩

٤- نعمان نجم . . ٢١٧
الجزء الخامس: شكّ أم يقين . . ٢٢٧
١ - بين الحيلة والموت . . ٢٢٨
٢- هناء نجم . . . ٢٣٧
السيرة الذاتية . . . ٢٤٦